محمد عبد الحليم عبد الله



الوشاح الأبيض

الوشاح الأبيض

مطبوعات مكتبة مصر

الوشاح الأبيض

تأليف
محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

١

كانت من سكان حى وطنى عتيق ، انبت عن الزمن ووقف حيث هو لم يزايل مكانه و لم يغير تقاليده . بقى رابضا عند سفح القلعة ينظر إلى القاهرة التى تجرى فى ركب الحضارة نظرة كليلة لا يكاد يستبين بها موقع خطاها وكأنه يزعم وهو فى مرقده هذا أن المدينـة تجرى نحو شىء مؤسف ، وأنه لا شىء خير من القديم .

كانت شبابيكه ولا تزال من ذوات « المشربيات » وأبواب بيوته من ذوات المصراع الواحد ، أما الحارات فإنها جميعا فى استقامة الحيات ، ومداخل البيوت ذات الدهاليز تذكرك بنداء السقائين وهم يـعبرون العتبات متقوسة ظهورهم تحت أعباء القرب ، وترسل إلى أنفك عطنا يرجعك إلى أيام الطفولة إن كنت اليوم ممن جاوزوا السبعين .

أما سلم بيتها فإنه تآكلت درجاته حتى أصبحت منحوتة الأطراف كبقايا قطع الصابون ، وكثيرا ما طوحت بصاعدين أو نازلين كما يفعل الحصان الجامح . ويقوم على السلم إطار خشبى قلق غير مستقر يتراقص

من لمسات الأطفال ، لكنه لم يفقد مزيته فى أن يرشد قدمك وأنت فى الظلام إلى حدود الدرج الذى تصعده حتى لا تهوى من حالق .

هذا هو بيتها !!

لو فتش الفقر فى الأحياء الخالية عن مسكن يرتضيه ويوافق ذوقه ما اختار إلا هذا المكان ، لأن هناك تآلفا عجيبا بين الساكن والمسكون كالتآلف بين القواقع والأحياء المنطوية فى أجوافها .

بنيت حجراته قديما على السعة ويسكنها اليوم أناس أقاموا على الضيق والفاقة !! ولعل مالكه فيما مضى كان يدعوه بالمنزل الكبير ؛ غير أنه اليوم ينظر إليه نظرة ملؤها الأسف لأنه يراه شيخا لم تكتب له الراحة فى أخريات حياته ، وحطاما لا يزال متعبا مكدودا من وثبات الغلمان على السلالم واستلقاء السيدات البدينات على حواف النوافذ معظم ساعات النهار يتسلين « باللب » والحديث إلى الجارات المطلات من نوافذ المنزل المقابل .

لكنه على الرغم من كل شيء يعج بالسكان كما تعج خلية النحل ، ولم يكن هناك تنافر كبير بين منظره ومنظر سكانه إلا إذا استثنيناها هى .. ولعلها كانت تحس بذلك كما يحسه أهل الحى . ولعلها قد حدث لها أنها سمعت وهى فى طريقها إلى المدرسة أو فى سبيلها إلى البيت ، أحد التجار ، أو أصحاب المقاهى أو الجالسين على الكراسى فى عرض الطريق — سمعت وأحدا منهم يهمس وهو يهز رأسه فيقول :

— يا خسارة !!

كانت تتعثر فى خطاها وتكاد تدوس ذيل ثوبها القصير كلما سمعت هذه الكلمة ، ويتجمع نصف دمها الفاتن فى وجهها المستطيل حتى يكاد ينبثق من الخدين ، ثم يفارقها الحياء بعد أن تعبر « البوابة » الكبرى فى مدخل الشارع ، ليحل محله شيء من الغرور الباكر والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالحسن ؛ وتجرى هذه جميعا فى رأس لم يتجاوز بعد ستة عشر ربيعا .

كان جمالها يعيش على الكفاف ويسكن هذا المنزل ، وكانت بكر أبويها .. أعنى أكبر بنين وبنات سبعة أنتجهم أبوان ذكيان فى سبعة عشر عاما فحسب ، مع ملاحظة أنهما لا يزالان فى خريف العمر وأن المناعة الطبيعية ضد المرض كثيرا ما تكون مرتفعة بين أبناء الفقراء !!

وتسكن هذه الأسرة الفقيرة شقة فى ذلك البيت الكبير فيها حجرتان اثنتان إذا أغفلنا حساب « الصالة » . وقد يستطيع إنسان ما أن يتمتع بالهدوء فيها ابتداء من منتصف الليل حتى قبيل الشروق .

كانت « درية » تحس أنها مظلومة وأن الظروف قد قذفت بها جزافا وكما اتفق ، فدخلت من النافذة إلى هذا البيت الحقير . ليس هذا موطنها فى تقدير الناس ولا دستور الجمال ولكنها فى الواقع بنت « مخيمر أفندى » المحضر بمحكمة الموسكى والرجل الذى جاوز الأربعين ولا يزال منطلقا على سجيته فى كل شيء . ينظر إلى الحياة من نافذة فتحها بيده وصنعها بنفسه فى جدارها فجعلها مناسبة لمزاجه وحده وموافقة لعينيه . ماذا يبتغى من الحياة ، وماذا بقى له فى الدنيا من أمل ، إذ حانت الساعة التى

يرتقى فيها إلى « باشمحضر » .

كان رب أسرة بالقضاء والقدر ، فلم يشعر بنفسه إلا وهو فى أحضان زوجته العزيزة كما يقول دائما وفى كل صباح حين يجلس إلى إخوانه فى المحكمة :

ــ هكذا وجدت نفسى أيها الناس .. وهكذا فرض على القدر وضعا لا دخل لى فيه . مرتب صغير علاوته بنون وبنات ، وزوجة مشاكسة لا تفتر عن حسابى . تصور يا أخى أننى أشتهى السكرة التافهة فلا أجد نفقاتها .. مرة واحدة فى الشهر أستطيع أن أفعل ما أشاء . ثم تأخذ بخناق بعدها يد زوجتى .. ويد الحاجة .

ويضحك « مخيمر » ثم يتمصمص بقية القهوة فى قعر قدحه ليستخلص شرابها من بين الرواسب ، ويمسح شاربا مهوشا فى وجه مكتنز تحت طربوش طويل . ثم يتحامل على نفسه قائما فى أسف يندب سوء الحظ متخذا سمته إلى أعماله اليومية .

وتعيش هذه الأسرة وهى لا تعرف كيف تعيش !!

إنها تنقل خطاها المرتبكة فى زحمة الطريق ، وتمشى مدفوعة بالمسرعين فيه ، كما يندفع الحصا الصغير فى طريق السيول . إن رب الأسرة نفسه يؤكد أنه يسير « بالبركة » لأنه إذا سأل الأرقام فإنها لا تعطيه نتيجة معقولة ، ولأن شريكته فى « البركة » تشرف على الميزانية بكل جوارحها ، فتجيب مطلبا على حساب مطلب حتى ييسرها الله . ولكن « مخيمر أفندى » يقوم دائما حجر عثرة فى سبيل الإصلاح المنزلى الذى

تبتغيه الزوجة كما يقوم الرجعيون فى المجتمع الطموح ، فكم نادت أم درية بوجوب إقلاعه عن كثير من العادات التى تكلفه من صحته المخصبة وجيبه المجدب شيئا كثيرا ولكن صوتها المبحوح لم يجبه إلا الصدى . فلم يقلع عن سهراته التى يغتصبها من البيت فيحول فيها الرغيف أو أعز من الرغيف إلى شراب ردىء يملأ به كأسه فى الحانة ، وهو يقهقه فى أحد أركانها المعتمة متبادلا الأفاكيه مع جيرانه من السكارى .

ثم يعود فى أخريات الليل منتشيا قليلا ناسيا همومه التى يضيق بها صدره ، وتجادله زوجته فى مدى تحمله للهموم وتعدد له الأبواب التى كان من المستطاع جدا أن تدخل إليها دراهم أضاعها فى الشراب . ويطول الجدال أو يقصر وترتفع فيه الأصوات أو تنخفض ثم ينتهى كما ينتهى ، ويسمع المستيقظون من الأبناء وهم فى مضاجعهم كثيرا من المشاكل يتداولها الأبوان فتعالجها الأم بالحكمة ويعالجها الأب بالنكتة .

* * *

كانت الليلة من الليالى الباردة التى يهجع الناس فيها مبكرين ، حتى الموسرون منهم وأصحاب المعاطف الثقيلة لم يستهينوا بقر هذه الليلة . وتباعدت الفترة بين كل عابر وعابر حتى انقطعت الأصوات فى الحارة ولم يعد يصل إلى آذان المستيقظين من سكان البيت الكبير شىء من الأصوات إلا خفقة الريح بين فينة وفينة ، وصوت هرتين شريدتين ألجأهما الشتاء إلى ركن أحد الأبواب فجعلتا تتناوشان فيه بمواء مقطع مسترخ ضعيف كأنما سيطر عليه النوم .

و لم يكن العشاء الذى تناولته درية دسما ولا شهيا ولا شيئا عسر الهضم يجثم فى المعدة فيحول بين آكله وبين الجوع . كان قطعة صغيرة من الجبن اشتبكت حولها أيد كثيرة فضلت فى ظلال كأنها مشتبك الرماح . وأعقب هذا العشاء واجب منزلى سهرت فيه الطالبة عدة ساعات أوت بعدها إلى فراشها وهى تحس أن البرد قد استهلك كل ما فى جوفها من غذاء . وأسلمت أهدابها للنوم وقتا استيقظت بعده فلم تدر ما الذى أيقظها . لعله حركة أمها فى الغرفة الأخرى أو فى الردهة ، لأن شيئا من القلق يشوب حركاتها مرجعه استبطاء عودة الوالد . أو لعل الفتاة قد قلقت من خفقة الريح فى مصراع نافذة ضعيف أخذ يزقزق معها كما يزقزق الجُندُب فى ظلام الريف .

ثم لعل سر قلقها أن المعدة قد فرغت تماما من شأن ما فيها فأخذت تهتف هتافا أقلق هذه المعدة النائمة .

على أنها لم تكن مؤرقة وحدها فإن اثنين من إخوتها الراقدين على حشية طرحت تحت أقدام سريرها الصغير قد أخذا يتنازعان الغطاء ويتهم كل منهما أخاه بأنه قد عرض جسمه للبرد ، ولا تطول مدة النزاع فيجرى خدر النوم مسرعا فى رءوس الصغار حتى تستأنف الهرتان شجارهما عند مدخل الباب بشكل فاتر لا حدة فيه يختلط آخره ببدء صرصرة المصراع ثم .. ثم تتلاشى الأصوات ، وتستأنف الكائنات نومها تحت جنح الظلام .

ويطرق الباب فلا يقول أحد فى الداخل : من ؟ لأن الطرقة كانت

معروفة ، وتهرول الأم لتفتح وهى تتمتم بما يجيش به صدرها منذ قليل وتتناثر كلمات غير واضحة من فم الزوجين وهما يدخلان إلى حجرتهما فتصل إلى أذن بنتهما الكبرى وتحس الفتاة أن سكرا خفيفا يأخذ برأس أبيها وأن حدة كبرى يمور بها رأس أمها وأن هذا البيت سفينة تالفة ، ثم تتلفت فى الظلام الذى لا يخفف من دكنته إلا شعاع مصباح صغير فى الصالة ينفذ إليها من أعلى الباب : تتلفت فتجد أطفالا متزاحمين فى مرقد ضيق تحت غطاء خفيف قديم وقد أفسد النوم العميق نظام رقداتهم فاستعرض أحدهم فى ضجعته وتأخر الثانى فيها وتقدم الثالث على حين جعل الرابع الغطاء فوق رأسه وترك جسمه عاريا . وتنزل درية من سريرها المشترك لتنظيم شعث هؤلاء الذين أنتجهم ذكاء خارق !!

ثم تعود إلى مكانها فلا تكاد تستقر حتى ترتفع عقيرة الأب بالكلام .

كان ثرثارا بطبعه ، قوى الحنجرة كما فطره الله ، وكانت الحجرتان فى هذا المسكن متقابلتين يفصل بينهما ردهة مربعة انتثر فيها كثير من سقط المتاع ، وكان الليل ساكنا والصوت عاليا ووضع الحجرتين يسمح للفتاة أن تستبين كل ما يقال .

وبدأ الشريكان يستعرضان كثيرا من المواقف ، ولم تكن هناك مشكلة واحدة بارزة متحيرة يتناولانها بالبحث والعلاج ؛ بل كان هناك عدة مشاكل ترمى بها كل واحدة إلى أختها ، كانا كالتى تبكى أولادها الكثيرين فإن بكت واحدا صار من المحال أن تكف حتى تبكى الباقين :

— لقد عييت بأمرك مخيمر ، وأمر أولادك كذلك ..

ــ ها .. ها .. ها . أولادى أنا وحدى ؟! لكأننا شركاء فى جريمة تنصل منها الضعيف أمام القاضى !! تقولين أولادك ... ها .. ها .. ها .. ثم ماذا عندك من الطعام لقد جوعنى السهر ؟ ..

« ولعل درية ابتسمت ساخرة وهى فى مضجعها الذى لم يكن دافئا وقالت فى نفسها : قدمى له يا أمى ما تبقى من أكل إخوتى وأخواتى .. من أولادك !! » .

وتابع الأب كلامه :

ــ لم أركب الترام فى هذه الليلة وأنا فى طريق العودة لأننى آثرت أن أستدفىء بالمشى . ها .. ها .. أو أو .. أو لأننى بخلت بالمليمات من أجل أولادك .

وانفجر بالضحك كما ينفجر بغتة صهريج زحمه البخار ، فكادت فتاته الكبرى تنفجر بالبكاء فى سريرها المثلوج ، وكادت الأم تحطم ترائبها حين دقت بيدها على صدرها عجبا واستنكارا .

واسترد الأب أنفاسه فأخذ يقول :

ــ أو أننى أحببت أن أمتع أنفى بتلك الرائحة الزكية الشهية التى تملأ الآن أماكن كثيرة فى كل حى .

وقد كان ذلك حقا . كنا فى الأسبوع الأخير من رمضان وكانت روائح الأمسيات فى كل ليلة من هذا الأسبوع مشحونة بنكهة عجيبة يعرفها الأنف من أول لمسة ولا تفوح هذه الروائح بشكل جميل واضح إلا حيث تفوح رائحة المال ، على أن المحرومين كانوا يشمونها بسخاء

وبغير حساب بالقرب من أبواب المخابز حيث يحمل الخدم مستطيلات من « الصاج » رص فيها الكعك وتصاعدت روائحه فى طبقات الجو يصحبها لغط خفيف كأنه أولى نغمات الموسيقا التى تبشر بالأعياد .

كانت الأم فى هذه الليلة ضيقة الصدر لأن هواجس أبنائها جميعا نزحت إلى نفسها هى لقرب حلول العيد . وبرقت دمعتان كبيرتان على خديها فى ضوء المصباح والأب يقول ما يقول ، فخيل إليها أن الرجل يعبث بدموعها كما تعبث الأنامل بحبات السبحة ، فبدأ صوتها العالى يترقرق فى حدة خارجا من الباب المفتوح متخذا طريقه نحو آذان غير النائمين فى الحجرة المقابلة .. خلف الباب .. حيث الظلام الذى لا يخفف من حدته إلا الشعاع المخنوق وحيث سرير صغير غير دفئ ولا وثير ينام عليه اثنان ، وحشية مبسوطة ينام عليها من عرفت طريقة نومهم :

ـــ والآن لم يبق أحد من أقربائنا الذين يعيشون بعيدا عنا .. لقد ماتوا جميعا .. وكنا مضطرين إلى أن نعلن للجيران كل مرة وفاة أحدهم قبل العيد بشهر ، ويخيل إلى أن الحيلة فقدت الآن كثيرا من مزيتها فأصبحت قديمة بالية .. إنكم تحملوننا أخطاءكم أيها الرجال ..

ـــ أنتن تحملننا أعباءكن .

فصرخت الأم قائلة :

ـــ ألححت عليك كثيرا ولكنك لم تستمع إلى ندائى .. لكأننا نعبئ أطفالنا فى العلب . وقد اقترحت عليك أن نضع حدا لهذه الفوضى كما فعل كثير من الناس .. ولكن .. آه ...

وسمع غير النائمين فى الحجرة المقابلة صوت الأب الساخر وهو يقول : خليها على الله !! ثم يرسل قهقهة متدفقة لا يقطع صداها على السامعين إلا خفقة شديدة لمصراع الباب وهو يقفل . ثم .. ثم تلاشت الأصوات واستأنفت الكائنات نومها تحت جنح الظلام .

إلا درية ، فإنها لم تكن نائمة !!

كانت جاعلة غطاءها فوق وجهها لتساعدها حرارة أنفاسها على أن تدفأ ..

ولعلها كانت لا تدرى شيئا عن السبب الذى جعلها تذكر صديقتها « نادية » وكانت جملة من الأفكار تلتقى فى رأسها فتأتلف وتختلف .. كانت أخلاطا غير منتظمة لكن دواعى شتى ولدت هذه الأخلاط :

نادية ، الزميلة الصديقة ، بنت الأسرة المتوسطة والتى ليست من حضيض الناس كأسرة أبيها .

وانتقل خيالها بها فحملها إلى عرض الطريق وهى ذاهبة أو راجعة من المدرسة ، فرأت كأن أحد الجالسين فى الحارة يتأرجح بكرسيه حتى يسند ظهره إلى الحائط دون أن ينقل الكرسى ثم حدد إليها ناظريه وهز رأسه وهو زام شفتيه ثم قال فى همس مسحور : يا خسارة !!

على أنها ليست أجمل من « نادية » لكن جمالها من نوع وجمال صديقتها من نوع آخر .. لكل منهما مذاق وطعم خاص بصاحبته كما تختلف طعوم الفواكه أو روائح الأزهار .

كانت نادية فى يوم من الأيام سائرة معها فى طريق العودة بعد

خروجهما من المدرسة ، وكانت كتفها ملاصقة لكتفها وخصل شعرها الأسود المغدودن تكاد تلمس وجه درية من كثرة ميلها عليها وهى تتحدث بصوت خفيض وتقول : إن أمها لم تعد تلد ، ليس هناك أطفال جدد منذ بضعة أعوام .. بعد عدة زيارات لطبيب ، ورقدة فى المستشفى لم تستغرق سبعة أيام ، جو بيتنا هادئ جدا يا درية لذلك تريننى أؤدى أعمالى بسهولة ليس هناك إلا أنا وأخى .

و لم تعد درية تطيق بقاء الغطاء على وجهها لأن أنفاسها بدأت تلفح وجهها فظمئت إلى الهواء البارد ، وجاس ناظراها خلال الحجرة فرأيا كل شىء فيها بوضوح ، رأت جملة من الأطفال أنتجوهم بلا حساب ، أنتجهم مزاج خالص لم يكن فيه شىء من الجد ، فلو كانوا لعبا أو فراخ دجاج لدخل طلب السوق فى حساب المنتجين !!

ولمع لعينيها فى الظلام فم « نادية » وهى تبتسم ، كانت كأنما تهز رأسها وتقول لها : إن الطب يا صديقتى قد وضع حدا لهذه المعركة الصاخبة القديمة ..

إن الأجساد التى تزدحم بها هذه الحجرة مما انجلت عنه هذه المعركة .. أحياء ، لا أشلاء !!

ويبتلع الظلام شبح الصديقة ثم ولد فيه شبح جديد يأخذ فى الظهور شيئا فشيئا حتى تبين فيه ملامح الأم ويخيل إلى الراقدة أن فى عنق الشبح سلة كبرى تطل منها رءوس الأطفال فى وضع مستدير مع حافة السلة وأن الأم تمشى بها منحنية مثقلة الخطا مبهورة الأنفاس وخداها مبللان بالدمع .

وكأن الأب من ورائها يدفعها بجمع يده فى ظهرها ليحثها على المسير وهو يضحك !!

فتسارع درية وتمد يدها لتسحب غطاءها على وجهها وهى تهمس : ويلى .. كأننى مجنونة !!

٢

كان جو الشقة التى تسكنها الأسرة جوا رائعا فى هذه الليلة ، كانت أشبه شىء بحقل من « الصبار » لمع ماء الرى بين شجراته المحرومة .

هناك ضحك وابتسام وبشر وفكاهة . ونكهة سمن وبصل وصوت ملاعق وأطباق ، وأغطية أوانى النحاس لا تفتر عن الرنين كأنها تتحرك من تلقاء نفسها ، ولم يكن يعلو عليها إلا صوت مخيمر أفندى وهو يقهقه أو يأمر أو ينهى . أو يذيع على أبنائه وبناته حديثا تختلط فيه نبرات كلامه بصوت مضغه للطعام .. وهناك صوت الأم يترقرق بين آونة وأخرى معلنة تعبها أو بداية مس المرض لجسمها المنهوك أو راجية أن يخفف الجمع قليلا من هذا اللغط .. ثم صحاف ترتفع وصحاف توضع. ولم تكن الأيدى المتشابكة فى هذه الليلة سريعة الحركة لأن فى الطعام شيئا من الدسم أدفأ البطون وخدر المعدات ، ولم تعد عين من عيون الأطفال تتابع حركات الأيدى ترتفع فى طريقها إلى الأفواه .

هنالك طمأنينة وسلام ووجبة هادئة لم يشبها تزاحم ولم يسبقها تأهب . حتى الأب لم يتهم فيها أحد بنيه بأن لقمته كبيرة إلى حد ينافى

الأدب أو بأنه لا يمهل فاه حتى يفرغ ما فيه . أما الأم فلم تكن بحاجة إلى أن تتشابع ولا أن تتمارض .

كان مخيمر أفندى يقص على أسرته شيئا مما صادفه فى يومه الفائت ، ولم يكن مهتما بأن يحسن أداء ما يلقيه لأنه مشغول بالمهمة الكبرى ، فلا يكاد يرفع عينيه عن الطعام اللهم إلا إذا شاء إلقاء أمر ، ثم يعود إلى ما كان فيه من قبل . وكانت الفتاة الكبرى تتأمل وجه أبيها فيخيل إليها أنه مسحور .. رجل يتكلم بسرعة وانطلاق ولا تنطق ملامحه بشىء مما يقول . لم يكن وجه رجل يتحدث ، وإنما كان شهية مفتوحة ، وخدين يضطربان باهتزاز الفك وانتظام يذكرها بحركة الآلات .

وكان بعض أبنائه يضحك والبعض يتأمل . أما الفتاة فقد كانت شاردة اللب . وكان الصغار الذين لم يتجاوز أكبرهم السادسة من عمره مستغرقين فى ضحك اغرورقت له عيونهم واتسعت بسببه ابتسامة أبيهم الذى سره أن سر جميع الذين يستمعون .

ثم ثاب الأب إلى رشده بعد أن فرغ من طعامه وإن لم يقم من مكانه ، وبدأ وجهه يشارك يده ولسانه فيما يقول . وكانت حلقة الصبيان من بنين وبنات لا تزال ملتفة حول الصينية يستمعون إلى أبيهم :

ـــ الحمد لله .. إنها نعمة . نعمة كبرى (ثم نظر إلى يده التى لا يزال أديمها يبرق من الإدام ومسح شاربه فسقطت من شعيراته حبة الأرز التى كانت عالقة به والتى كان الأطفال يتضاحكون منها) واستطرد بلهجة جديدة فيها شىء من الأسف :

ـــ وهكذا نحن دائما توقفنا مهنتنا هذه على مآسى الناس. من المحال أبد الدهر أن يدخل المحضرون بيتا لم تدخله الديون . حتى بيوتنا كثيرا ما يخطئ الدين فيدخلها فى أعقابنا . فقالت كبرى بناته : كالأطباء لا يدخلون إلا حيث تدخل الأمراض . واتصلت عباراتها هذه بآخر بسمة كان فيها شيء من الفخر والاستحياء على حين انبرى أحد إخوتها ممن جاوزوا العاشرة ، فعلق على الموقف بلهجة تخالطها روائح الشباب الباكر : وكاللحادين يا أبى يمشون فى خطوات عزرائيل ..

فصرخ الأب فى وجهه واستعاذت الأم من الشيطان ، وجمد مخيمر أفندى فى مجلسه برهة لا يقول ولا يتحرك بل جعل ينقل ناظريه بين أولاده وهو يحرك رأسه ببطء حتى رسم دائرة كاملة . ثم ضرب كفا على كف وضحك :

ـــ أما والله لو حدث هذا فإن المأساة الحقيقية ستكون هنا .. هنا .. ولا هناك .. وتنفس طويلا وأطرق ينظر إلى جملة من الملاعق نثرت فوضى على صفحة الصينية كان عددها تسعا كعدد الأيدى وكانت ألوانا وأشكالا لفقت الأم بينها تلفيقا .

وعجبت أم درية مما سمعت وصوبت الفتاة الكبرى أهدابها السود وهى تدمن النظر جيدا إلى أبيها .

أما عيون الصغار فقد كانت تدور فى محاجرها وتلقى بالنظرات فى كل ناحية وتنطق بالتساؤل فى كل صوب . ثم بدد هذا السكون صوت الأم وهى تتساءل :

ـــ ماذا أصابك يا مخيمر افندى ؟

ـــ نوبة .. نوبة من نوبات العقل .. كثيرا ما تصيب المجانين أمثالنا من الآباء .. تصورت فى هذه اللحظة شيئا غريبا .. تصورت أن يدا قوية خطفتنى من بين هؤلاء وأنهم أخذوا يضربون فى طرقات الحياة يلتمسون القليل الذى كنت أطلبه لهم . وأن البنين .. أريد أن أقول : وأن البنات ..

فوضعت الأم حدا لهذيانه المؤذى بأن بسطت كفها على فمه وهى تهتف فى ذعر وتشاؤم وتأنيب : لعلك بحاجة إلى كأس ..

سمعت درية ما دار بين أبويها وكان معظم الباقى من الأبناء يتزاحمون على الصنبور فى المطبخ فى جلبة وضوضاء ويقذف بعضهم بعضا برغوة الصابون . على أن صدى هذا الحديث لم يكن ليزايل خيالها بسهولة . كانت تسترجعه فى أمسياتها كلما هدأ من حولها المكان ويعاودها فى خلواتها دون أن تناديه . كان هما راسبا فى النفس يطفو على السطح كلما سنحت فرصة . وكانت هذه الفتاة التى تعتبر نفسها من المظلومات تنظر إلى نطلق أبيها على ضوء ما ترى حولها وما تسمع فتلقيه ضيقا كريها غير صالح لأن يتنفس فيه .

ما هذا الزحام الذى تراه فى البيت ؟؟ وهل كان ضروريا ؟ إن قطب الرحا الذى تدور حوله الأسرة واه ضعيف لا يحتمل هذا التزاحم ؟ كل سندهم فى الحياة رجل ينتابه « العقل » فى بعض أوقاته . أشبه بقائد الفرقة الموسيقية الذى لا يعرف من معنى القيادة إلا أن يمسك العصا فحسب . فتتصاعد

النغمات فوضى غير منسجمة ليس فيها إلا التنافر والصراخ .

ثم فرضت درية أن قائد هذه الفرقة ألقى العصا فجأة ثم غاب كما تصور هو ذات ليلة ، فما الذى يحدث ؟؟

سيكف العازفون وتخرس الآلات وتدور عيون الكبار والصغار تفتش عن الذى يمسك العصا بعد القائد . فإذا به أرملة ومن وراء ظهرها عذراء .. عجيبة !! .

وتتنفس فيخيل إليها أن الهواء كثيف ثقيل ليس من الخفة ولا السلاسة بحيث ينفذ إلى الصدور بسهولة . ويشتد عليها الموقف حين يقذف بها خيالها من جديد إلى حيث تقف الفرقة التى يرعاها أبوها ، وتنظر ، فإذا كل أفرادها فى ملابس سوداء لأن القائد الذى تخلى عنهم كان عزيزا على الرغم من فشله ، محبوبا على الرغم من سوء تصرفه .. يخدعون به الحوادث .. يبعث الطمأنينة فى نفوس الناظرين سمته الضخم وهيكله العظيم . أشبه بالدبابة التى صنعها بعض المحاربين من الخشب فخدعوا بها العدو فترة من الزمن . ثم لا يطول موقفها أمام إخوتها المحزونين حتى ترى كأن يدا تجذبها من خلفها وتنظر فإذا به شريك حياتها المنشود يشير بيده الأخرى نحو الطريق .. ولكنها لا تتحرك . وتدفعه عن نفسها برفق !!

وكان فى طبيعة الأم شىء من الحكمة وإن كانت من الجاهلات . كانت تختلى بفتاتها بعض أويقات خصوصا كلما ضاقت ذات اليد أو بدا على أفق الزمان يوم كثير المطالب ، فتتحدث إليها حديثا مزدوج الفائدة ، فيه ترفيه ونصيحة كأن تقول :

ـــ كنت أتمنى لو أننى بكرت بغلام . كان من الجائز جدا أن يكون موفقا صالحا لأن يدعم بيت أبيه ..

وتسرع الأم فتمحو العقدة التى بين حاجبيها بابتسامة مصنوعة يشرق بها وجهها حتى تشرق نفس بنتها كذلك :

ـــ ولكن .. أليس من الجائز جدا أن تمد فتاة يد المعونة إلى إخوتها الضعاف ؟ .. إن البيوت المزحومة كثيرا ما تنسى متاعبها القديمة إذا كتب لبعض أفرادها التوفيق ..

أبوك رجل طيب القلب . ألست توافقيننى على هذا يا بنية ؟؟

وقد تكون السيدة وفتاتها فى مثل هذه اللحظة منكبتين على الغسيل تعركان بين أيديهما أخلاطا من ملابس متلاحقة الطول فتنظر ابنتها إلى الماء الكدر ولا تلبث حتى تهمس : وهل فى ذلك شك يا أمـاه ؟! وتستطرد السيدة : أليس من الجائز أن نكون من الأغنياء يا درية فى يوم من الأيام ؟ غيرى الماء . صبى أمامنا قليلا من الماء الساخن . لا تضغطى الصابون هكذا حتى لا يتآكل .. ولا تعركى القميص هكذا حتى لا يتمزق . نعم . نعم . هنالك ناس يدخلون الحياة من باب الفقر ثم يخرجون منها من باب الغنى . ويقع العكس .. آه .. هو كذلك ، وأظننا من الأولين . شىء واحد أرجوه وأبتهل به إلى الله فى صلواتى ؛ أن أعيش وألا يتغلب المرض على جسمى المرهق فأشرف على تهيئة بيتك . أبوك رجل طيب . أعانه الله . ولكن حظه فى الحياة هكذا . وربما حظه فى أبنائه خيرا من حظه الشخصى .

ـــ جائز .

وتكفان عن الكلام وتأخذ كل واحدة منهما فى النظر إلى الفقاقيع التى تولد وتموت تباعا بلا انقطاع على صفحة ماء الغسيل فى الطست . وتستمع إلى نغمته الرتيبة التى تنشأ من احتكاكه بالبلاط من تحته . ثم تستأنف العذراء الحديث بعد أن يطول إنصاتها إلى الموسيقى النحاسية التى تصاحب خضخضة الماء .

ـــ لا علينا يا أماه .. سأتم دراستى هذا العام .. وسأسرع إلى معاونة أبى .. أما زواجى فهو شىء لا أفكر فيه .

وساد الصمت وعادت الموسيقى المعهودة تنصب فى الأسماع ، ورمت الأم طرفها برفق حتى وقع على وجه فتاتها فإذا بالجد والعزم يملآن صفحته المستطيلة ، وإذا عقدة جميلة صغيرة قد ولدت فى أعلى الأنف بين الحاجبين كأنها سلاح لطيف ترفعه فى وجه الزمن .

وليس من شك مطلقا فى أن الأم دعت بقلبها وشكرت بضميرها فضل الله . ثم استمعت إلى نفسها وهى تقول لها :

ـــ جائز .. جائز جدا .. ربما كانت خيرا من فتى مخنث .

* * *

كانت روائح الربيع الباكرة تسرى فى نسمات القاهرة بعد كل غروب فتوسوس بها الأغصان وسوسة خافتة كما تتحرك أهداب السكارى . وشرع عطر خفيف يفوح فى الجو لا تشمه إلا أنوف الشعراء . وذوائب أشجار الكافور الباسقة التى غرست فى فناء إحدى المدارس بدت لعين الناظر من شباك « نادية » وهى تلوح للربيع المقبل بأفنائها الطرية . كان

كل شيء فى المساء سحرا وشعرا وكل كائن فى الوجود ينبض بالحياة تحت إحساس نادية . وكانت فى حجرة مكتبها حيث تقرأ أو تطرز وقد تخلصت قريبا من ملابس الشتاء ، فلم تعد تلقى على كتفيها شالها « الشبيكة » ولم يعد صدرها الناهد يبرز به إلى الأمام . بل تفتحت مع الربيع شأن الجميلات من بنات المدارس فارتدت ثوبا ناصعا تتفتح بنيقته عن أعلى الصدر واستقبلت النافذة فنفذ بصرها إلى ذوائب الشجر تحت ظل هذا المساء الخفيف مخترقا فضاء السطوح المنخفضة بالنسبة إلى منزلها . ثم قالت :

ــ وبانقضاء هذا العام يا درية سنفرغ من شأن المدارس . فلا كتب ولا كراسات ولا تطريز ولكن سنسلك طريقا جديدا جميلا بغير شك . طريق الأمهات يا صديقتى .. حيث القراءة للأزواج والتطريز للأبناء .. و ..

ــ والكتابة لمستشفى المجاذيب .

وأطرقت درية وتشاغلت بطرز بين يديها أما نادية فإنها أخذت تجول بناظريها فى كل صوب والدهشة تملأ جوارحها .

وانقضت فترة ليس فيها إلا الذهول والإطراق لأن درية تغيرت فجأة فى نظر صديقتها حتى ظنتها أنها أقفلت قلبها دون كل إنسان .

لكنها عادت فسألتها عن « راضى » عن حبيبها هذا الذى كانت تريد منذ زمن قصير أن تجعل الأرض قسمة بينه وبينهما . فلما ألحت عليها لتعرف سر هذا التغير أجابتها بهدوء وذلة وانكسار ، فبدأت تقص عليها

قصتها :

كانت علاقتها بهذا الفتى ترجع إلى خمس سنوات مضت . وكانت أولى التجارب التى مر بها قلبها الراكد . ومرت عليها فترة طويلة من شبابها المغرور وهى واثقة أن جمالها عصا سحرية تستطيع أن تلقف بها من تشاء من الرجال حتى ولو كانت بنت مخيمر أفندى ، ولعله كان يبدو لها فى فترات أحلامها المستيقظة أن الرجال إنما يتزوجون الفتيات دون أن يعنى الكثير منهم بل والكثير الغالب بمكانة آبائهن أو قيمة أسرهن . وأخذت أحلامها هذه تغيب فى الضباب رويدا رويدا على نغمة ما كانت تسمعه من بعض الجالسين على المقهى أو فى عرض الطريق ، حين كان يتراجع أحدهم بكرسيه إلى الوراء وهو يقول : يا خسارة .. وعلى نغمة ما كانت تسمعه من أبيها الذى كان يفرض فى كثير من المواقف أنه مات . وعلى نغمة ما كانت تسمعه من أمها حين تختلى بينتها فتسكب فى نفسها شيئا من الغيرة على الأخوات والإخوة وقدرا من الشفقة بأبيها الذى فرضت عليه الحياة عيشة الضيق ، وكثيرا من الأمل فى حياة أرغد وعيش أخصب وأوسع ولو على يدى أنثى .

على أن هواتف الحب لم تغفل قلبها الغض فى شبابها الباكر فعرض لها فى الطريق « راضى » وفرض على نفسه مهمة شاقة لذيذة هى أن يترقبها عند باب مدرستها عصر كل يوم فيقف متلفتا مذهولا حتى يظهر قوامها النحيف الرشيق من بين قدود أترابها ، ثم يمشى وراءها مباعدا أو مقاربا . يغمر ملامحه الهادئة خشوع وأمل ، ولم يحدث له مرة أنه ارتكب إزاءها حماقة أو حاول أن يتحدث إليها بعد أن تختلف الطريق بزميلاتها اللائى

يسرن معها كأن خمر شبابه من النوع الذى يشتد أخذه حتى يمسك شاربها عن الكلام ، أو كأنه اعتقد أن حديث عينيه فصيح صريح وكل حديث بعده فضول . ويمشى راضى وراءها فى الطرق على هذه الحال حتى إذا ما بدت لعينيه البوابة المعقودة عند مدخل الشارع أحس كأن كل حجر من أحجارها ينذره بالويل إن هو لم يرجع فيدور فى الميدان الصغير هنالك متلمسا سبيله بين عشرات من عربات صغيرة تحمل الخضر والفاكهة وتنتشر فوضى فى رقعة الميدان . ويمشى خطوة ويتلفت ثم يمشى خطوة ويدور على عقبيه ليلقى إليها نظرة فيراها منطلقة كالسهم لا تأبه لشىء مما وراءها .

وتجرى الحال على هذا المنوال بضعة شهور لا تتغير . ولا يتخلف الشاب عن حراستها فى الطريق إلا أياما معدودة كانت درية تحس فيها أن شيئا من مقومات الطريق غائب مفقود أو كأنها تسير وحدها يغمرها كثير من الوحشة . ثم يؤذن العام المدرسى بقرب النهاية وتؤكد ذلك أنفاس المقطم التى أخذت تسرى فى جو القاهرة فيسرى معها الحر والغبار ، ويشعر هذان الروحان اللذان لم يكتب لصاحبيهما أن يتحدثا بأن فجوة من الزمن ستنفتح بينهما وأنه من الجائز أن ينبعث منها حنين ينقلب إلى شوق ثم يتحول الشوق إلى خواطر معربدة تعيث فسادا فى خلايا القلوب .

وليس الخوف من النهاية بمانع أن تجىء النهاية لأن « راضى » قد ألفى نفسه واقفا على الطوار تجاه مدرستها للمرة الأخيرة فى هذا العام يراقب

ذات القوام الناحل والسمت الجميل وهى تنفصل عن أترابها المتزاحمات عند الباب لتأخذ طريقها إلى البيت . ثم ينتهى الصيف بحره وأحزانه وأفكاره ، ينتهى بالنسبة إلى الطلبة وحدهم لأن افتتاح الدراسة سيكون فى اليوم التالى . ويستلقى الفتى فى سريره ولا ينام طول الليل ، اللهم إلا فى الأخريات حين تسرى أنسام الفجر فتضغط بأناملها الندية على أجفان المؤرقين .. كان يفكر فيما عسى أن يتنفس عنه الصباح ! إنه سيراها ، فماذا سيقولان ؟؟ سيقول هو لها كلاما كثيرا ، بقى أربعة شهور يؤلف بين أشتاته ، وستقول له هى فى آخر الأمر كلمة ميسورة إن لم يتحرك قلبها لهذه الآلام . ويتكرر الموقف وتتفرق الأتراب عنها فتأخذ طريقها وحدها إلى البيت ، وتخف فى الطريق قدمان خلفها يتعثر صاحبهما فى أذيال سرواله حتى إذا أدركها بدأها بقوله ـــ سيدتى ؟؟ .. ولا يتكلم ، لكن درية لا تلبث أن تبتسم ويشيع فى وجهها نور رضا وسلام ينفذ شعاعه إلى قلب فى ضباب الحيرة يتغذى بالأحلام وحدها ، بيد أن الفتى لا يخرج عن صمته وتريد هى أن تعاونه فتمد له يد المساعدة حين تقول :

ـــ سيدى .. نعم سيدى ، هل تريد أن أتحدث بالنيابة عنك ؟؟

ـــ مطلقا .. لكنه حديث طويل ..

ـــ أفهم ما تعنى . (فقال بلهفة فيها توسل) :

ـــ هل نحن متفقان ؟؟

ـــ ربما !!

— إذن وداعا .

* * *

لم يستطع أحدهما أن يعلل التحول الذى طرأ عليهما فى أصيل ذلك اليوم بعد لقائهما بنصف ساعة . كان كل منهما فى وهلة اللقاء الأولى لا يكاد يحس إلا بالناس حتى لكأن عباد الله قد اجتمعوا فى الحديقة لأنهم يتآمرون عليهما . وما استهل حبهما وتنفس أنسام الحياة ومضى على ميلاده وقت غير طويل حتى اختفت الناس من نطاق إحساسهما ، فلم يعودا يشعران إلا بشخصيهما ولا يريان إلا ما يبتسم من أجلهما . وقد كان معظم الكائنات يبتسم .

جلسا أول ما التقيا فى أحد « الأكشاك » النباتية التى لكأن البستانيين قد وشجوا بين أغصانها من أجل كل عاشق . وفى ظل هذه الحوائط الشفافة الخضراء انقضت فترة التلعثم التى تكون عادة فى لقاء كل حبيبين ، ولعلهما أحسا بعد ذلك أنهما أكبر من أن يحدهما مكان فخرجا يلتمسان الهواء ويطلبان الخلاء ، فاضطجعا على العشب برهة أخرى ، ثم خيل إليهما أن الأجساد التى تمسها عصا الحب يجب ألا تسكن ، فتركا الحديقة لنزلائها وأخذا يضربان فى ظلال الجزيرة ..

« ثم اشتد بى الحنين يا صديقتى وأرقتنى الوساوس حين عرفت أنك مريضة .. كنت على مقربة منك عدة ليال أراقب وأدعو وأبتهل ، وأتمنى أن لو قسمت المساءات بين الناس لأحمل عنك معظم ما تحملين . ثم عرفت نوع مرضك حين رأيت رباطا من الشاش يدور حول وجهك

ليحمل اللوزتين . ورأيت رجلا عظيم الجسم قوى الصوت عرفت بعد أنه أبوك . أما السيدة التي عرفت فيها أمك فقد كانت حنانا دائما يرابط جنب الفراش . ولست أنسى ما حييت تلك الشجاعة التى هبطت على فجأة حين تقدمت إلى خادمة مدرسة البنات التى تواجه مسكنكم ، رأيت فيها امرأة طيبة فياضة العطف بعد أن حملت إليها بعضا من الهدايا ، وقد رثت لحالى وودت من كل قلبها أن لو استطاعت أن تسعد قلبين . لقد تزوجت على حب فى زمانها الذى ولى ، ولو أن الحب فى ذلك الزمن كان شيئا نادر الوجود .. كان سلعة محظورة ، تتداولها القلوب فى الخفاء ، كما تقول !!

وتهدأ الحركة قليلا فأكون فى نافذة الفصل الذى يواجه غرفتك أراقب من وراء « الشيش » نافذتك المفتوحة وأحول النفس فى كل ليلة وأنا فى مجثمى هذا إلى مسرح تتعاقب عليه الإحساسات العنيفة — خيل إلى فى كثير من المواقف أن أهتف باسمك لتسمعى فتطلى فتعلمى أى قلب هذا الذى أحبك ، حتى إذا ما انقضت فترة الآلام ومرت نوبة الحمى ، وبدأت تدخلين فى الدور الذى يرقد المرضى فيه ليستردوا قواهم ؛ كنت أحس كأنى أحد هؤلاء المرضى .. كان الخدر الذى فى جسدك يسرى سريعا إلى بعد أن أجلس إلى النافذة بخمس دقائق وقد حدث مرة أن غلبنى النعاس فلم أستيقظ إلا على يد السيدة وهى تربت كتفى برفق » .

ثم وصلا بحبهما إلى النهاية التى يصل إليها معظم الأحباب ، فاتفقا على الزواج وجعلا يرسمان فى كل لقاء كيف أن العش سيحرسه الرجل

وتضيئه المرأة . وجاوزوا فى إحدى الأمسيات الجميلة حد الأمانى إلى حيث جعلا يرسمان ملامح الأولاد ، فقال راضى — إن من الخير أن يجىء الذكور فى ملامحه وأن يجىء الإناث فى ملامحها ، أعنى أنهما اقتسما المسألة بالنصف حسما لحبل الجدال الذى طال !! ثم تسربت درية شيئا فشيئا إلى لباب حياة صديقها فأخذت توحى إليه بغموض أنه لا داعى أن يأخذ فى الدراسة العليا بعد دراسته الثانوية .. الوظيفة خير ، والتعجيل بالزواج أحسن ما فى الخير ، لماذا ؟؟

لأن قلبها يحدثها بأحاديث غريبة .. إنها ترى على أفق وجودها أشباحا تتحرك وليست تدرى ماذا وراء هذه الأشباح ، ولكنها تخاف !! ويجيب راضى بأن السعادة تحمل معها دائما علامة نقصها ، فالخوف من تخلف الأمانى هو النقص الذى تحمله فى طياتها أمانينا الدنيوية الزائلة !! ويجىء فى مثل هذه اللحظات دور القبلة ، فتلتقى الشفاه فى منتصف الطريق بين الحبيبين ، فينسج الأحباب بها حول نفسيهما طمأنينة صناعية ينسيان بها — ولو إلى لحظة — ضعفهما أمام سطوة الأقدار .

وتمر الأيام وتنطفئ فى نفسها هذه الحدة حين ترى موقف أسرتها ، وتكف درية عن التلويح بمخاوفها لراضى ، وتدخل علاقتهما فى دور من الاستجمام ينطبع الفتى معه بطابع الترقب وتنطبع هى فيه بطابع الحيرة التى بدت على ملامحها ليلة كانت نادية تبثها الشوق إلى طريق الأمومة .

٣

بدأت حياة مخيمر أفندى تدخل فى نطاق من الخصب غير طبيعى ولا معقول . وبدأ الرجل يدعى أنه مرهق مكدود ، وأن أعباء وظيفته ثقيلة فلابد لمثله من الغذاء والترفيه .

وألقت الزوجة سلاحها بعد الصراع الطويل فى سبيل إصلاح البيت ، فتركت السفينة التالفة تمشى كما تمشى ، وبات مخيمر أفندى لا يعود إلى المنزل إلا سكران ، اللهم إلا فى القليل من الليالى حيث تستطيع الزوجة أن تعوقه عن الخروج بالشجار أو بالحيلة .

بيد أن بقية أفراد الأسرة بعد درية وأمها كانوا يحسون راحة ورغدا ويعجبون مما يرونه من غضب الأم : طعام سخى وملابس جديدة فى أوقات غير متباعدة ، والدنيا بخير ، فما بالها متضايقة ؟!

كان الغلمان يتساءلون فيما بينهم ثم يتهامسون وقد تقاربت وجوههم وامتزجت أنفاسهم : وما الذى يضير هذه الأم من أن يسكر الوالد ؟! كأنهم كانوا يتصورون أن أمور الحياة تجرى على ما ينبغى ما دام فى بيتهم طعام كثير .

وأصبح مخيمر أفندى بعد مضى شهور على هذه الحال شخصية معروفة لدى رواد حانة « حسن الختام » .. وهكذا كان يسميها أولاد البلد ، و لم يستطع أحد تعليل هذه التسمية إلا اثنان أولهما صاحب الحانة الذى قال : إن الله واسع المغفرة ، وسيغفر الذنوب جميعا لرواد هذه الحانة .. ثم هز كتفه وأردف : والدليل على ذلك أننى لم أطلق عليها هذا الاسم وإنما أطلقه عليها الناس . وهذا تعليل شاعرى فيه كثير من رائحة « الكحول » . أما التعليل الذى يمكن أن يكون واقعيا ، فهو أن رواد الحانة كان معظمهم من المتقدمين فى السن .. من صغار الموظفين وأصحاب المهن التى تتمتع برواج ولا يحظى أصحابها بالرخاء .

أصبح مخيمر أفندى شخصية معروفة وأصبح يعقد المراهنات فى الشراب مع كثير من أصدقائه الذى لا يفتأون يفتخرون بأنهم عاصروا الخمر منذ انتشارها ، حتى كأنهم عصروها .. ثم يقول الواحد منهم بلسان عاثر متلعثم : أما أنت يا صديقى .. فشريب جديد .. أنا أستطيع أن أصف لك .. موقع كل حانة فى القاهرة منذ خمسين عاما .. وأن أذكر لك أسماء عمالها ، وتنقلاتهم .. وأخبارهم .. وأسماء أبنائهم إذا أحببت . ويختم عبارته بضحكة يقطعها السعال ثم يزدرد ثمالة فى كأسه وهو لا يشعر بأن أحد جيرانه قد مزجها بحراقة السيجارة .

وكثيرا ما كان مخيمر أفندى يخرج من هذه المراهنات ظافرا بعض الشىء . كان يفقد معظم وعيه وإن لم تبلغ به الحال مرة أنه عجز من المسير . وكان فى هذه الليلة قادرا على المشى عاجزا عن أن يتعرف

طريقه . كانت الشوارع متشابهة فى عينيه وأضواء المصابيح كلها تتراقص ، وكان يضحك منها ويظن أنها تتغامز ساخرة منه ، ثم ينقل خطاه وكأنه يخلعها ، ويضرب فى تيه من الأحياء معلقا على كل ما يراه بأقوال لا تزيد على أن تكون إشعاعات لخمر رديئة أفرط فى شرابها ، كأن يقول : ادعوا معى بطول العمر لمدير مصلحة المساحة .. الرجل الطيب .. أبو المساكين . ثم يهذى بعبارات أخرى ويعود فيقول : ادعوا معى بطول العمر لمدير مصلحة المساحة . ويقف برهة إلى جانب أحد المصابيح فى الشارع حيث يسند ظهره إلى العمود ويرفع وجهه ويبسط كفيه ليهمهم بدعاء ظريف .

وبلغ مخيمر أفندى باب بيته فى هذه الليلة بعد لف ودوران ، ثم طرق الباب بأنامل مرتعشة جعلت زوجته تسأل قائلة : من ؟ لأن الطرقة لم تكن مألوفة ، ولم يلبث حتى أجابها بصوته الجاف ولسانه العاثر : أنا .. أنا مدير المساحة .. افتحى يا سيدتى .

كان هناك فى القرية حيث مسقط رأس هذا الرجل ميراث ضئيل لا يتجاوز نصف فدان ، وكان عم مخيمر يذكره دائما فى الملمات ويتجه إليه بقلبه وعواطفه فى كل أزمة ، وكان هذا الميراث بالنسبة لهم جميعا أشبه شىء بقطعة الحلوى التى تتجرع المر ونحن ناظرون إليها ، وكم من مرة ثار من أجلها الشجار بين الزوجين ، فيقترح الرجل على امرأته أن يبيعها مائة مرة كل عام وتصده هى بضجيج ولهفة وصراخ قائلة له : دعها أيها الرجل فربما حكم الزمان .

ولم يكن هذا المنطق ليقنع زقا عظيما يريد أن يمتلئ خمرا وهيكلا ضخما يريد أن يخزن طعاما ، فتحتال عليه برقتها النسوية قائلة : إن لها وله خمس بنات وربما تقدم زوج لإحداهن فيمسك عم مخيمر نفسه على غيظ شديد ويدعو الله بينه وبين نفسه أن تقع المعجزة .

ووقعت المعجزة ذات يوم من الأيام ، وانتزعت ملكية نصف الفدان لمرفق من المرافق العامة ، فابتلعه جوف مصرف يتجمع فيه ماء الرى . ولم تعد هذه البقعة المخصبة تنبت شيئا إلا الحشائش البرية ، وأعواد الغاب التى تنمو عادة حول كل ماء . ثم شيئا آخر بالنسبة إلى مالكها ، هو خمر دائمة وطعام كثير . ومنذ ذلك التاريخ بدأ مخيمر أفندى يدعو لمدير مصلحة المساحة كلما أحس النشوة ونسى الهموم .

* * *

وانقضى العام المدرسى ونجحت الفتاتان : درية ونادية . وخلت كل منهما إلى نفسها لتستدعى آمالها ، فرأتها درية فى كيس ضخم مفعم بالمال ورأتها صديقتها فى وجه صبوح يبتسم لها ، ويكافح من أجلها ، وهى مسترخية على أحد المقاعد المستطيلة فى بيته تعمل صدرية من الصوف بإبرتيها الطويلتين لوليد وسيم يجرى تحت عينيها !!

أما مخيمر أفندى فقد حلا له الشراب فضرى به وبرع فيه وأخذ يجرع منه الكثير لأنه مسرور سعيد بأول توفيق أصابه فى أحد أبنائه . وقد كان من قبل يجرع منه الكثير لأنه مرهق مكدود يحتاج إلى الغذاء والترفيه .

والتقت الصديقتان اللتان فرغتا من الدراسة ذات مساء فى زفاف

إحدى الصديقات . وكان المساء جميلا نديا أفعم جوه بالعطر والأنغام وأشرقت فيه وجوه العذارى كأنهن قد أبرزن حسنا مخبوءا ، وتراقصت الآمال على وجوه كل فتى وفتاة ، ومالت كل صديقة على صديقتها لتهمس فى أذنها بأمل حلو أو لتعلق على موقف طارئ . وكانت نادية تنظر إلى إكليل الفل وهو يرف على رأس العروس فيخيل إليها أنه أخطأها وأنها هى التى كانت مقصودة به ، وأن يدا تنظمه من أجلها ليكون على رأسها بعد وقت غير طويل .

وعبرت عن آمالها هذه لصديقتها بأن تمنت أن تراها هى وراضى فى زفة العرس عما قريب ، فأجابتها بإطراء ذاهل عابس أفاقت منه قائلة : هذا هو الذى أتمناه لك يا أختاه ، أما أنا ، فأحس كأننى مجندة لغرض لا أعلم كنهه وكأن على أفق وجودى شيئا لا أفهم معناه . حقيقة أننى أحب راضى لكنى أشعر فى هذه الأيام أن حبى له غاص قليلا قليلا حتى غاب فى أعماق قلبى كما تغوص السفينة بعد أن يملأها الماء . حقق الله لك آمالك يا نادية ، إنك تمشين يا صديقتى على طريق ممهد تظلل الأشجار جانبيه ، أما أنا ففى مفترق طرق عارية خاوية غامضة مجهولة .

كانت تغمات الموسيقى تشق الطريق إلى آذانهما وهما فى مكان منعزل بعيد فتصل إليهما واهنة ضعيفة ، وبدا وجه درية تحت عبء السهوم مستطيلا جدا أكثر من المألوف لأن منظر بيت أبيها المرحوم كان قد وثب إلى مخيلتها على حين كان رأس نادية مشغولا بوجه خطيبها المنتظر ، بوجه « منصور » الذى تربط أسرته بأسرتها علاقات قديمة ، والذى تتوقع

الفتاة فى كل شهر أن يقدم إلى أبيها معلنا خطبتها .

وأتم راضى دراسته الثانوية فى هذا العام كذلك ، ثم جعل يفكر فى أمر مستقبله ويوازن بين حياة زوجية مبكرة فى ظل حب ومال غير كثير تضيئها درية ، وبين حياة أخرى قد تكون أوسع وأرغد ، ولكن حبيبته ليست شريكة فيها .. وانتهى به التفكير إلى أن يلقاها ليعلن لها خبرا يسعدها فينبئها أنه اكتشف شيئا عجبا لم يخطر على بالها من قبل .. اكتشف أن قلبه محتاج إلى رعاية وعناية أكثر من اللتين يحتاج إليهما عقله ، لأن عقله قد نال قسطا من الغذاء يستطيع أن يحيا به بقية عمره أما قلبه فإنه لا يزال محروما لم ينل من غذاء القلوب الحد الأدنى لمستوى المعيشة حتى يحيا كما تحيا القلوب !!.

وسهر الليلة السابقة للقاء ينمق العبارات ويزوق الألفاظ ويمثل كل موقف ، ويتخيل وجهها النضر الجميل وهى تبتسم لبشراه ثم ترخى أهدابها لبرهة قصيرة تنظر بعدها إليه فتفصح العينان عن معنى وغرض .. ثم تلتقى الشفتان .

* * *

كان قطار حلوان يجرى بهما مسرعا نحو الضاحية الساحرة فى أصيل اليوم وهما جالسان إلى جوار النافذة متقابلين فى جلستهما . ولم يكن وجه درية ناضرا ولا مشرقا ولا فصيحا ، كان فيه ذبول وغموض كأنها تعالج هما . وانطلق راضى فى حديثه لا يتردد ولا يتلعثم وهى منصتة قليلة التعليق على ما يقول ، ملقية ببصرها إلى النافذة تراقب أعمدة التليفون

على جانب الطريق وهى تجرى مسرعة إلى الوراء وكأنها كانت تعدها . كانت مستسلمة إلى خواطرها وكان هو مستسلما إلى خواطره ، وخيل إليه أنها تتمثل كل مشهد من المشاهد التى يصفها وأنها مشغولة عنه به لا بشيء سواه . كان يقول :

ــ ستكونين معى فى أى مكان وستكون السعادة حيث نحل معا .. سأستصلح أرضا بورا وستكونين ركنى الذى أفئ إليه كلما مسنى التعب ، وإذا لم أوفق إلى نيل هذه الغاية بدأت تجارة برأس مال صغير فى أى بلد تروج فيه التجارة ، وستكونين أنت ربحى العظيم الذى يدعم أرباحى القليلة . سترحب بنا البقاع ما دمنا معا .. وسنكون من أسعد الناس . درية !! ما بالك شاحبة هكذا ، صامتة كما يسكت المحزون ؟! وتركها تبتلع ريقها مفكرة فى الرد وناب عنها قائلا : يحدث كثيرا يا صديقتى أن يظهر السعداء بمثل مظهرك هذا . ومن أجل ذلك لن أرهقك بسؤال ، وتأهب مرة أخرى ليكمل حديثه الذى كان مسترسلا فيه ، لكنه فوجئ بردها عليه : لا .. بل إننى أحس إرهاقا عاما لا أعرف مأتاه .. جسمى أشبه بأن يكون بيتا من البيوت المتداعية التى توشك أن تنقض !!

وفعلت عبارتها هذه فى إحساساته الحارة ما تفعله حفنة الماء البارد حين تلقى بها فى قدر تفور . وجمعتهما الحديقة اليابانية فى حلوان فجعلا يتساقطان الحديث وقتا كان غير طويل خيمت فيه عليهما سحابة رأى فيها الخصب والرى ورأت فيه الصواعق والرجوم . ولما قفل بهما القطار

راجعا بعد نزهة الليلة كانت درية ملقية بناظرها وخاطرها إلى الظلام الذى يخيم على الصحراء فى طريقها وهى ممسكة عن الكلام بحجة أن الصداع بدأ يناوش رأسها مرة أخرى .

على أن حيرتها واضطرابها وتبدل حالها وبلبلة أفكارها ، لم تكن جميعها لتخفى على قلب الأم ، فلقد أحست أم درية أن فتاتها تعالج هما طارئا صحبه قليل من الشحوب وشيء من الشرود والسهوم ، وأفضت بهواجسها هذه إلى زوجها ذات ليلة حين انفرد بهما المكان فصاح فيها بصوته الجافى وطبعه الغليظ : ماذا تريدين أن تقولى أيتها السيدة ؟ . إنكن ناقصات عقل ودين ، أتريدين أن تتهمى بنتى بالحب وأنا الذى أشرف على تربيتها ؟ ثم استغفر الله ، وسحب الغطاء على وجهه واستسلم للنوم العميق .

ثم اختلت الأم ببنتها فى ضحى أحد الأيام وكانت الفتاة لا تزال فى فراشها .. نهض الجميع ولم تنهض هى لأنها تدخر قدرا من الراحة لأيام عمل مقبلة لا تعلم ماذا فى ضميرها ، دخلت عليها الأم وجلست إلى جوارها فى الفراش الذى تنام فيه وأخذت تمرر يدها الحنون فى خدها وشعرها ثم جبينها وكتفها :

ـــ درية مالك يا بنية ؟!

فقالت وهى تتثاءب :

ـــ لا شيء يا أماه ..

ـــ شحوب قليل يلون وجهك الوردى ، كأنه بداية أو نهاية لوعكة

ألمت بك .. إن قلوب الأمهات يا بنتى يشعرن بكل شىء .. ويستمعن إلى شكاة البنين ولو لم يبوحوا بها . أحس من بعيد كأنك متعبة ، أو كأنك غير سعيدة .

ـــ مطلقا يا أماه .

فتثبت الأم فيها ناظريها لتحملها على الصراحة :

ـــ ليس هناك شىء سوى أننى أحس بوحشة تدخل إلى قلبى . وحشة تزيد وتتكاثر بمرور الأيام حتى كادت تملأ صدرى وحتى كاد القلب يضل فيها كما يضل نور الشمعة فى الضباب الكثيف ، وأظن أن ذلك يرجع إلى خوفى من أن أشغل وظيفة فى مدينة بعيدة .

فتنهدت الأم تنهدة عميقة كان الرثاء أكبر دافع إليها ، وعادت يدها بحركة آلية لا دخل للإرادة فيها تعبث بشعرها وتربت خدها وجبينها ثم قالت :

ـــ هناك خيط من النور يبدو على الأفق فى أمر وظيفتك ، وقد قابل أبوك بعض أولى الشأن فحدثوه بأنك ستعينين مدرسة . ثم قبلت الأم كفيها ولمعت عيناها بالمخاوف وتابعت حديثها : ولكن ، أين ؟؟ ذلك ما لا يعرفه أحد ، إلا أنك ستوظفين على كل حال . هذا هو الذى قيل لأبيك يا درية ، ولكننى أبتهل إلى الله فى صلواتى أن تكونى فى القاهرة حتى لا تبتعدى عن عينى . (والتقت عيونهما برهة فتبادلتا الحديث بسرعة ثم استرجعت كل نظرتها وأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى) .

كانت الأم تريد أن تحذر فتاتها من الحب فقالت لها الفتاة : أخشى ألا

أستطيع .

ـــ على أننى يا بنيتى أعتقد أن عناية الله لن تتخلى عن الضعفاء ، وأنت ترين أنه لابد من العمل . لقد بدأ أبوك يتآكل ويذوب كما تتلاشى قطعة الزبد تلقين بها فى حرارة المقلاة . كان جوادا كثير الكبوات و لم يستطع أحد إصلاحه ، وقد أخذت عليه الخمر مذاهب تفكيره . وأحس أن فيك عظمة نفس . فيك كبرياء كثيرا ما تصون الفتاة من الأحداث الجسام .. خصوصا إذا عاشت فى غربة ، وكانت وحدها !! هل تفهمين ما أعنى يا درية ! من حظى أننى تزوجت رجلا سكيرا فقيرا ، ومن حظى كذلك أننى كثيرة الأبناء ، ومن حظك أنت أنك بكر أبوين فقيرين أبناؤهما كثار . أبوك يا درية رجل طيب لكنه سيئ التصرف .. ولكن هكذا حظه فى الحياة !! (وتسكت قليلا ثم تنظر إلى بنتها نظرة ثابتة لا حركة فيها ثم تسألها) :

ـــ هل تؤمنين بالحظ ؟؟

فتعتدل الفتاة فى فراشها وهى تقول : نعم يا أماه .. أومن به إيمانا عظيما . فتقبلها فى جبينها قبلة تدل على الرضا وتلاقى الآراء ، ثم تدعو لها بالحظ والتوفيق .

وتحس درية منذ ذلك الحين أنها مجندة لمهمة كبرى ، وأن أباها هذا الذى بدأ السقم يدب فى بنائه المكين ، رجل فى طريقه إلى الفناء ، وأنها ستمسك العصا من بعده وستنظر الفرقة إلى القائد فتجده امرأة ومن ورائها عذراء .

وتأخذ أنفاس الصيف فى الفتور شيئا فشيئا وتلمح تباشير الخريف وفى صفرة باكرة تجرى على ورق الشجر ونسمات عابرة رعناء تجرى أذيالها مع المساء . ويدخل عم مخيمر أفندى بيته فى أحد هذه الأيام فلا يتخطى عتبته حتى يرفع عقيرته معلنا بشرى سعيدة لم يحتملها قلبه طول الطريق فحدث بها كل من لاقاه من الناس ، رفع عقيرته معلنا نبأ تعيين درية مدرسة فى إحدى مدارس البنات فى مدينة طنطا . وهجم على بنته يلثم جبينها وخديها ثم تركها إلى بقية أبنائه فأوسعهم لثما وتقبيلا ، على حين كانت درية وأمها تتبادلان النظرات فى فرح يمازجه كثير من الخوف والوحشة .

وغادر الأب بيته بعد قليل قاصدا حانة « حسن الختام » ليغسل قلبه الصدىء فيها بكأس من الزبيب النقى احتفالا بهذا الخبر السعيد ، وسهرت الأم إلى جوار بنتها تزودها بما تزود الأمهات بناتهن من نصائح ثم تركتها إلى مخدعها فلم ترنق فى عينيها سنة ، حتى سمعت وقع أقدام أبيها فطفرت من عينيها دمعة حارت فى تعليل طفورها ، ولم تلبث طويلا بعد ذلك حتى انتزعها النوم من أفكارها .

وكان لابد لها قبل أن تسافر إلى طنطا أن تصفى موقفها حيال راضى وقد تأهبت لهذا الموقف منذ شهور ووطنت نفسها عليه حتى خيل إليها أن فى قلبها من القوة ما يستطيع بها أن يلفظ من الأحباب حبيبا سكنه ستين عاما ، وخيل إليها كذلك أن هناك نوعا من الأمراض يصيب القلوب فيقتل فيها استعدادها الطبيعى لاستقبال أى رسالة ، فيعيش القلب عمره

وهو لا يعرف إلا النبضات الرسمية التى يوزع بها الدم لا غير ، أما النبضة الفتية ذات الألم اللذيذ والوخزة الحلوة فهى شىء لا تستطيع معرفته القلوب المريضة .

ثم كان بينهما لقاء أخير ، جمعت فيه درية كبرياء بنات حواء كلها وعملت منها قناعا ألقته على وجهها .. كانا فى أصيل من أصائل الخريف أصفر شاحب ، وكانا جالسين على كرسى مستطيل فوق قنطرة مقوسة أقيمت على بركة طفا على وجهها البشنين ، فى إحدى الحدائق العامة .. غير أن الدنيا كلها كانت خرابا فلم يكن حولهما فى الحديقة أحد إلا بعض الفنانين الهواة الذين يعجبهم من وجه الكون ما لا يعجب كل الناس . فهناك أحد الرسامين وقف منهمكا فى رسم لوحته الزيتية . وهناك فى الطرف الآخر موسيقى صغير افترش الحشيش وجعل يداعب أوتار عوده . أما هما فقد كانا ينظران إلى الشمس الغاربة السقيمة وهى ترسل بأشعتها متعثرة بين فروع إحدى الأشجار الضخمة ، ويستمعان برهة إلى نغمة ناشزة يرسلها الموسيقى الصغير ثم ينصتان برهة أخرى إلى خشخشة الأوراق التى تساقط من الشجر ذاوية جافة فلا تلبث زوبعة خفيفة أن تأخذها وتدور بها فى المماشى إلى مدى غير طويل .

كل شىء يؤذن بالفراق حتى الطبيعة كان على أفقها وجوم ، وألقت درية إلى صديقها أول ما جلسا بخبر تعيينها مدرسة فى إحدى مدارس طنطا ثم أمسكت عن الحديث فلم تقل شيئا ، وجعلت تنصت إلى زفراته المكتومة التى حاول أن يخفف بها عن نفسه ثم سمعت إليه وهو يتكلم على

نغمات منتظمة انبعثت من طرق خفيف كان يوقعه برجله على خشب القنطرة .

ـــ وما دام الأمر كذلك فما الذى حدا بك إلى أن تتكبدى متاعب الانتقال إلى هذا المكان ؟

كان يتكلم وهو غير ناظر إليها فردت عليه دون أن تحول إليه وجهها :

ـــ هل كنت ترى من الخير أن أخلف ميعادا اتفقنا على اللقاء فيه ؟! .. وإذا كان الأمر كذلك فإن فى استطاعتنا أن نفترق منذ الآن ، على أن الفرقة واقعة من تلقاء نفسها فلا معنى إذن أن نفعل كما يفعل الأطفال حين يقولون للسماء وهى تمطر : « أمطرى يا سماء » .

ـــ كل الذى أشتاقه هو أن أعلم سر تحولك .

ـــ وكل الذى أشتاقه هو أن أعلم سر استمساكك بفتاة مثلى .

ـــ لأنك الفتاة الأولى التى رآها القلب أول ما نظر ، لكنك آثرت حياة العمل على حياة الزواج .. كنت أريد أن أجعل منك أسعد زوجة لأسعد رجل ولكنك فاجأتنى اليوم بتحللك من كل العهود كأن الذى حدث لم يكن بينى وبينك وإنما كان بينى وبين فتاة سواك . لقد جعلتنى أدرك فجأة أننى ضعيف وأن الله لم يمنحنى من القوة ما أستطيع بها أن أحتفظ بحبيب .

ـــ ليس فى الأمر ضعف ولا قوة ولا خيانة ولكن الظروف هى التى حالت بيننا وبين أمانينا . اسمع يا راضى أنا لا أستطيع أن أتزوجك عاجلا ولا أن أعدك بالزواج إذا رضيت بالذى أغضبك أول الأمر وهو أننى

سأعيش وحدى فى مدينة بعيدة ، لا أستطيع الزواج ولا الوعد به لأن شيئا لم أكن أتوقعه برز فجأة فى طريق حياتى فحملنى على التحول فلا يؤسفك هذا .

فقال بغيظ شديد : وكل الذى أشتاقه هو أن أعرف هذا .

فأجابته بهدوء بارد :

ــ ألم تقل لى منذ برهة أنك لم تتمسك بى إلا لأننى الفتاة الأولى التى رآها القلب أول ما نظر ؟! .

فغفر فاه وفتح عينيه وأومأ برأسه أن أكملى الحديث .

ــ إذن فأنت لا تستطيع أن تتحول عن حبك بسهولة ؟! . و . .

وأمسكت عن الكلام ونظرت إليه فى كبرياء ظهر الحزن على حواشيها فظن راضى أنها ترثى لبلواه ، بعد أن فهم من حديثها أن حبيبا أول ظهر فى نطاقها من جديد ؟!

كانت الشمس محلقة على الأفق الغربى تكاد تهوى إلى مستقرها البعيد وهناك زوبعة ليست ضعيفة ولا عنيفة تخشخش بأغصان الغاب وتكنس جفيف الورق ، وكان المصور يجمع ألوانه وألواحه والموسيقى يعزف لحنا حزينا كأنه يهديه إلى هذين القلبين ، أما أوراق البشنين فإنها كانت ترتعش على صفحة الماء كأن منجلا يجز فى أصولها من أسفل ، كان ذلك والشعاع الغارب واقع على خديهما وهما متواجهان وكأن سيفا مصلتا قام بين شخصيهما .

كان كل منهما يتهيأ للقيام لكنه . كان منتظرا حتى يبدأ به صاحبه ،

ثم شغلهما عن القيام شاغل جعلهما ينظران إليه برهة فى تعجب واستغراق !

فقد كان على مرمى بصرهما بركة سبحت فيها طيور الماء إلا زوجا واحدا من هذه الطيور فإنه انتحى ناحية من البركة ووقف على رأس أحد الخلجان وبدءا يتناوشان ثم اشتبكا فى عراك ظل فترة من الزمن وظلت عيون الحبيبين تتابعه فى جمود شارد وشخوص غريب حتى بانت النهاية ورأى الناظران أحد الطائرين يخر على الأرض ثم يزحف ضعيفا واهنا متوانيا حتى يصل إلى لجة الماء فينتفض كأنما أفاق من غيبوبة ثم يسبح ضاربا فى لجة الماء إلى حيث تقوم على مقربة منه خميلة من الغاب قصد إلى ظلالها . أما الآخر فقد ظل واقفا فى مكانه يحرك عنقه إلى كل ناحية ويقلب ناظريه فى كل جانب وكأنه حيران . وانحسرت نظرات الصديقين عن هذا المشهد لتلتقى مرة أخرى ثم تخاطبا بالعيون فقال راضى : لعلها الأنثى .. الأنثى هى التى خانت . فأجابته قائلة بعينيها : وما يدريك ! لعل الأمر على عكس ما تقول .

ثم نهضت من مكانها فنهض فى أثرها ووقفا لحظة على قمة القنطرة المقوسة ثم اتخذ كل منهما ناحية فى هبوطه إلى أرض الحديقة . سارت يمينا وسار شمالا كأنه لم يكن بينهما عقود . وقد كانت درية أشجع على تحمل الموقف من صديقها المسكين لأنها تابعت سيرها لا تقف ولا تتلفت . أما هو فإنه وقف بعد بضع خطوات وأخذ يتابعها بعينيه حتى غابت خلال الأشجار فإذا به يمسك جنبه كأنه مطعون .. لقد أحست كبده حرارة

الشوق فورا لأنه يحب . وما أفاق حتى تراجع سريعا إلى حيث تقوم القنطرة وأخذ يثب على ظهرها المقوس وثبات من الممكن أن يختل توازنه فيها ، حتى إذا ما عبر البركة جد مسرعا فى أثر درية التى لم تقل له كلمة وداع حتى بعينيها !! لكنها ضلت منه فى مماشى الحديقة .

٤

ماذا كان يريد أن يقول لها يا ترى ؟!

ما أعجب قلوب العاشقين !! إنهم دائما يتطلبون الحبيب النافر ، وأغلى القلوب قلب تحترق فى سبيله أوصالهم وهم فى طريقهم إلى كسبه .

لو أنها جادت عليه بقبلة ، ثم أسبلت أهدابها ونغمت صوتها وقالت له : لن أنساك ، لكان من الجائز جدا أنه ينساها ، لكنها تعمدت أن تطلق الطائر من قفصها ولو أنه عزيز عليها ، ثم تضع كفيها على عينيها وتتركه يطير إلى أى اتجاه يشاء .

لعلها كانت تسائل نفسها وهى راجعة : لم فعلت هذا ؟ أليس فيه قسوة ؟! ثم تعود فتتناسى سؤالها لأن كبرياءها لا تسمح لها بأن تتراجع .

أما راضى فقد رجع بعد هذا اللقاء بصفقة الخاسر وحسرة المغبون .. كان يحس أن الدنيا كلها سخرت منه ، وأنه لا شىء فيها يرثى لمصابه . وأن كارثة عاطفية كبرى حاقت به فأتلفت عليه الماضى والحاضر والمستقبل ، فلا ذكريات ، ولا راحة ، ولا آمال ، وكان يزور مجلسهما على القنطرة المقوسة مدة إقامته فى القاهرة للعظة والعبرة ، كما يزور

الأحياء منازل الأموات . وكان قلبه يزعم له فى كل مرة أنه خلو من الذكريات ، وأنه أضرم النار فى كل ما خلفته ؛ فلم يبق فيه أثر لماضيها .

ثم زحفت الأيام عليهما بعد ذلك حافلة بالحوادث .

وحانت الليلة الأخيرة لمقامها فى القاهرة ، وعرجت على ناديـة تودعها . وشهد هذا المساء الخريفى المتلفع بالضباب تعانق الصديقتين ودموعهما وهما تتبادلان القبل والدعاء والأمانى ، وربما كان راضى فى هذه اللحظة أو فى تلك الليلة ، ملقيا برأسه على ظهر كرسى مريح فى إحدى الحجرات من بيت صديقه سعيد الذى يسكن حيا متوسطا من أحياء القاهرة ، وربما كان هناك يكلم صديقه وعيناه ناظرتان إلى السقف تطالعان آثار زخرفة قديمة ، وكان سعيد يرسل بحلقات الدخان من فمه متزاحمة دوارة وتقلبت أحواله ، كما تتلون حظوظ الملتفين حول الموائد الخضراء .

ولم يكن ذلك الفتى الذى جعل يندب آماله فى حضرة صاحبه ، مفصحا عن شخصية التى غدرته ، كان يحيطها بهالة من القدسية فى قلبه أيام كانا على وفاق ، ثم جعل اليوم يحيطها بهالة من الغموض والرهبة ويتصور فيها امرأة شديدة المراس خبيرة بقلوب الرجال ، بين يديها منها نماذج كثيرة فاضلت بينها واختارت حتى كان قلب راضى من المنفيات . ولم يلح عليه سعيد فى المسألة كأنه كان ينظر إلى مأساته كما ينظر صاحب المصنع إلى المادة الخام . كان شاعرا يألم لنوازل الناس ولكنه كان يغتبط حين تضع الظروف فى طريقه جذوة من زفرات القلوب يجعل منها قبسا

لإحدى قصائده .

ثم بات سعيد ينظم من المأساة مقطوعة شعرية ، وبات راضى يفكر فى الخطوة التالية التى يجب أن يخطوها قلبه بعد أن ينزع السهم من شغافه ، وباتت درية ليلتها هذه تهيل التراب على الماضى بيد فيها قسوة وعين فيها دمعة ، وتتطلع إلى المستقبل من وراء الحجب ثم تسترد طرفها حاسرا كليلا .

* * *

شهدت محطة طنطا فى ضحا اليوم التالى فتاة ناحلة العود تشق طريقها بين الهابطين إلى المدينة بوجه ساهم وجمال فقير ، وكان فى يمناها حقيبة كبيرة قص أبوها عليها قصتها ساعة كانت تحشوها بالملابس والحاجات ليلة أمس ، فقال إنه يعتز بها كثيرا ولكنها لا تعز عليها .. لقد اشتراها مخيمر أفندى من ثلاثين عاما أيام كانت حقائب السفر لا يحملها إلا المترفون ، ثم ارتحلت معه حقيبته هذه إلى مواطن كثيرة من أرض الله يوم كان موظفا صغيرا عازبا خالى البال سيئ التصريف لا يعلم من أمور الدنيا شيئا !! وختم الوالد كلامه قائلا لها : إنك ستذكرين بها أباك يا درية دائما فى كل وقت فحافظى عليها .

وفرغت درية فى سيرها من قطع الرصيف العريض العالى فألفت نفسها أمام أحد الأنفاق التى تؤدى بالهابطين إلى الميدان الرئيسى الكبير فى مدينة طنطا وأخذت المسافرة المرتبكة فى هبوط الدرج بين زحمة النازلين وهى مستسلمة لأفكارها مرسلة ببصرها الشارد إلى نهاية الطريق

المجوف تحت سطح الأرض . ولعلها كانت فى هذه اللحظة تفكر فيما عساه ينتظرها فى وطنها الجديد . لكن حدثا عارضا مفاجئا اغتصبها من هذه الأفكار حتى جعلها تذكر أباها . تذكره وحده بشكل عجيب وهيئة واضحة والدموع تترقرق فى مقلتيها .

كانت جموع المسافرين القاصدين إلى المدينة تتدفق على سلم النفق لا تمكث ولا تتريث ولا تبذل من معونة لهذه الوحيدة أكثر من نظرة عطف أو ابتسامة ساخرة ، وكانت هى منكبة وحدها تجمع بكلتا يديها ما تناثر من ملابس وحاجات لفظتها حقيبة أبيها بعد أن وهى قفلها فانفتحت فجأة وأخذت الحاجات تتدحرج على السلم كأنها تريد أن تسبـق صاحبتها إلى دخول المدينة !!

وذكرت درية أباها فى ذلك الموطن الحرج وأخذت الدموع المترقرقة تزداد قليلا بعد أن أعادت الحقيبة إلى وضعها الأول وشرعت تنقل قدميها على أرض الطريق فى خطا حزينة متشائمة ، حتى دخلت طنطا ندية الخدين ..

كل المدرسات بمدرسة الفنون بالمدينة يكدن يكن منها أو من القرى القريبة إلا أربعا منهن تدخل فى حسابهن الآنسة درية ، وقد أعدت المدرسة للغريبات قسما داخليا يقمن فيه تتوفر فيه راحة وطمأنينة للائى يجبرهن الرغيف على الإقامة بعيدا عن أوطانهن الأصلية .

ولم تكن حجرات القسم الداخلى لتتسع إحداها لأكثر من سريرين ، لذلك كان هناك فى الطبقة العليا من المدرسة حجرتان متجاورتان تطل

نوافذهما نحو الشرق على منظر رائع ، فيرى الناظر أول ما يرى حديقة خلفية مستطيلة يشرف المطل من إحدى النوافذ على عرضها الذى لا يزيد على خمسة أمتار ، وقد حرص المشرف على شئونها أن يجعل منها حقلا ومتنزها وجنينة ، فبين شجرات الفاكهة المتباعدة المنثورة تستطيع اليد أن تقطف زهرا وأن تحش بقولا .

وتنحصر هذه الحديقة الخلفية المستطيلة بين أحد المبانى وبين السور ، وينفذ إليها الماء من فتحة جوفت فى هذا الجدار الواطئ حيث تتصل بقناة لا تكاد تجف ، على سيفها ممشى غير عريض أهملته الأيدى لأنه فى ظاهر المدينة فتولته يد الطبيعة على مر الليالى حتى فرشته ببساط من النجيل كث غزير تبرق عليه حبات الندى فى الضحوات فى فتنة لا تراها إلا عيون المطلات من القسم الداخلى بمدرسة الفنون . وينحصر الممشى والقناة بين سور المدرسة الذى بنى من الآجر وسور صخرى آخر استدار حول ملعب المدرسة الثانوية وهو واسع مربع الرقعة يجعل أشعة العيون الناظرة من حجرة درية لا تتعثر فى بناء مطلقا حتى يقع على بعض البيوت بعيدا بعيدا ، ثم على نوافذ أحد المستشفيات .

وعلى هذا المنظر الساحر تفتحت عيناها حين نفضت عن جسدها الغطاء ، وتدفق إليها النسيم عطرا نديا يحمل إليها تحيات الحقول فأحستها للمرة الأولى فى عمرها فنسيت جرح المذلة الذى أصابها فى ضحى اليوم الماضى حين تبعثرت حاجتها على سلم النفق وعلى مرأى من الناس . ثم اندمجت بعد ذلك فى غمار الحياة شيئا فشيئا وبدأت تحس أنها ولدت بعيدة

عن أبويها هكذا منذ أدركت أنها موجودة ، وقل تحدثها عن أمها وأبيها فى سمر الليل الذى تأتلف فيه أربعتهن كل مساء . ولم يكن بين هؤلاء الفتيات فى الأشهر الأولى من مقامهن شىء خارج عن نطاق المألوف . كن يجتمعن فى إحدى الحجرتين فيتناولن شئون الحياة ، ويلمسن شئون القلوب لمسا خفيفا ليس فيه تطفل ولا تضييق ، كانت كل منهن تحب من تحب من مجموعهن وتقبل من لا تحبها على علاتها . على أن شخصية « عفيفة » بينهن كانت مثارا للضحك ومبعثا للتخفيف من الهموم ، كن جميعا يتسلين بقصصها وحديثها ويضحكن من آلامها ودموعها فى كثير من الأحيان . كانت ذات قبح وسذاجة ونفسية متعطشة للحياة التى لا تواتيها ـــ على وضع يدعو إلى الرثاء لا إلى السخرية .

كانت كبيرة السن بين شابات ثلاث لا يزلن زهرات فى أول الموسم ، تخطت الأربعين وبقيت تحث خطاها فى إثر قطار الشباب والزواج والحب وتبذل فى سبيل اللحاق به حيلا تظنها جديدة فعالة محبوكة ، دون أن تدرى أن حيلها مع الأسف قديمة مهلهلة تثير الابتسام . ثم هى بعد ذلك فارهة طويلة تداخلت أجزاء جسدها حتى غاب الخصر وظهرت الأرداف ، وبرز الصدر على هيئة تحبب الرجال فى الصدور المقفرة الممسوحة لأن النقيض قد يكون خيرا من نقيضه . وتلوح من وراء منظارها السميك عينان فيهما اتساع غير جميل وفى مقلتيها الكبيرتين جحوظ قليل .

وفى الحجرة المتوسطة المساحة ذات السريرين ، كانت تشارك عفيفة

هذه زميلتها عايدة ، وهى زهرة لا تزال فى سبيل التفتح ، فكانت بالنسبة إلى زميلتها أشبه شيء بمحك حاد لا يفتر عن العمل حتى حولت قلب جارتها وأعصابها إلى معترك دائم الأمانى والشجون .

وأما الحجرة الأخرى التى يشغل سرير درية أحد نصفيها ، فقد كان بها الآنسة نجاح . وهى فتاة طيبة مسكينة قنعت من دنياها بأن تراقب الحوادث ولا تشترك فيها ، وقد نشأ انكسار نفسها وسواد مزاجها من مرض باطنى مزمن حاد لم توفق إلى علاجه حتى تركها ناحلة ذابلة سقيمة ، ولو أنها فى مقتبل العمر ، لكن على وجهها فضلات من جمال ، نجت من ذلك الحريق الهائل .

* * *

كان الوقت ليلا والنوافذ مقفلة وقد أسدلت عليها الستائر والشتاء فى أخرياته ، لكنه كان نشيط الحركة فى هذه الليلة تصفر رياحه فى ذوائب شجرة المانجو الكبيرة التى تقوم بين باقى الأشجار فى حديقة المدرسة ، وكأنها أم الجميع .

وقلقت درية من نومها على صوت هذه المظاهرة الجوية ، فانبعث فى قلبها قلق ووحشة ، ثم جعلت تنصت بعد ذلك إلى صوت قرض خفيف لم تتبين موضعه بالضبط ، فلم تدر أهو فى صوان ملابسها هى أم فى صوان زميلتها نجاح . وهمت أن تقوم فى الظلام لتتحسس زر النور خوفا من أن يكون أحد جرذان الحقول قد تسرب إلى صوان الملابس ، ولكنها عز عليها أن تزايل مرقدها الدافئ . فتلففت بأغطيتها وبدأت تتسمع ، لكن

الصوت كان قد انقطع ، وهادنت الرياح ذوائب الشجرة فسكن الحفيف إلى فترة من الزمن ، وخيل إلى درية أن زميلتها نجاح غير نائمة ، لأن أنفاسها لم تكن فى انتظام أنفاس النائمين ، فتنحنحت درية لتعلن أنها غير نائمة ، فبدأت الأخرى تئن أنينا خفيفا ، فترقرق صوت فى ظلام الحجرة ليسأل :

ـــ ما بك يا نجاح ؟ ظننتك نائمة !!

ـــ لا شيء يا أختى .. أنا بخير .. على أننى لم أنم حتى الساعة .. أقلقنى مغص لم يهادنى إلا منذ لحظة .

ـــ إذن فقد كنت تسمعين قرض الفيران فى صوان الملابس منذ لحظات .

فضحكت ضحكة متهافتة افتعلتها من بين آلامها بعنف ثم قالت :

ـــ لم يكن هناك جرذان يا صديقتى تقرض شيئا من محتويات الصوان فيما أظن ، وإنما كان هناك جرذان تقرض فى جسمى .. كنت أصر بأسنانى كلما عضنى الألم !!

فمصمصت درية بشفتيها ألما وحسرة ثم ساد صمت موحش جسمت وحشته نغمات الزوبعة ذات النشوز وهى تتعثر فى الخارج بين تلافيف شجرة المانجو ، وانقطع حبل الصمت حين قالت درية :

ـــ إيه .. لابد من الصبر يا أختاه !!

ـــ صبر العاجزين أيتها الصديقة ، وما عسى أن أفعل لو أننى تمردت على الواقع .. لو أننى غنية ..

وتنهدت وسكتت فوضعت درية كفها على جبينها تذكر حوادث الماضى القريب ، وخيل إليها أن قضية نجاح أعسر مــن قضيتها ، ثم استحثتها على أن تكمل الحديث :

ــ آه .. لو أنك غنية .. ماذا كنت تفعلين ؟

ــ لا شيء ، سوى أننى كنت أنقطع عن العمل .. لكننــى غير مختارة !!

وساد الصمت مرة أخرى وسكن حفيف الشجر سكونا طويلا كأن الكون أراد أن ينصت إلى قصة ، ودقت ساعة البرج فى الميدان القريب دقتين اثنتين خيل إلى الفتاتين أن فيهما خدر النعاس ، وشمل السكون مرة أخرى ثم شرعت نجاح تتحدث :

ــ ليتنى كنت يتيمة ، لكننى لم أكن يتيمة ، وإنما ولدت فى بيت الطاعة ، وتقول أمى : إن شموع سبوعى لم تكد تنتهى وتأكلها النار حتى خرجت بى مطرودة من بيت الطاعة ، ثم رحل أبى عن وطننا إلى مكان بعيد وبقيت فى بيت خالى يكفلنا الرجل على ضيق ، وظللت أنا وأمى منزويتين فى أحد أركان داره كاتمتين عنه ما نقاسيه من عنت زوجته حتى أكملت دراستى ثم بدأت الأمراض تظهر مرة واحدة . ولكن ماذا عسى أن ينال المرض يا درية من فتاة تعول امرأتين ؟! فإما أن نموت من العمل ، وإما أن نموت من الجوع !!

ثم شرقت بدمعها فكفت عن الكلام ، وسحبت الغطاء على وجهها وتركت درية تفكر فيما تفكر فيه .

كلنا هنا ذوات هموم ، إلا عايدة فإنها تحمل هم قلبها وحده !! وعفيفة تحمل هم قلبها وعقلها فى وقت واحد . وأنا ؟! ترى ماذا يكون مصيرى !! إن الخطابات التى تأتينى من القاهرة تنم عن أن أبى يتدحرج فى المنحدر وهو لا يدرى أنه يتدحرج ، يقول إنه ذهب إلى الطبيب للمرة الأولى فى حياته ، وذهب مضطرا ساخرا لأنه لا يؤمن بما يقولون ، والمصيبة الكبرى فى نظره أنه منعه من مأكولات خاصة وعن مشروبات خاصة ، وليست المعضلة فى المأكولات الممنوعة عنه لأنها ليست متوفرة فى البيت وإنما المعضلة الكبرى فى بعض المشروبات الممنوعة !!

وقد قال هذا الطبيب الغر الذى ضحك منه أبوها فى سره لأنه رآه فى الخامسة والعشرين ، قال : إن أباها مريض بارتفاع ضغط الدم ، وما ضغط الدم هذا ؟! إن عبقرية والدها تفسره بأنه خرافة يلجأ إليها الطبيب الذى يجد بين يديه مريضا لا داء فيه . ثم تنقضى فترة وتتلقى درية رسالة أخرى تعلم منها أن المعونة المالية الشهرية قد استقل بها أبوها وحده فى هذه المرة . ومن هذه المعونة دخل الدواء بيتهم للمرة الثانية .

وجرت الحياة السكنية بين أربع الآنسات هؤلاء مجرى فيه شبه كثير من الحياة الواسعة الكبيرة : فبينهن عفيفة التى تتحدث عن حب وخطبة ورجوع وفسخ وشباب وزواج فيضحكن أو يتألمن ، وبينهن نجاح التى تهتم دائما باسم كل دواء جديد حتى ملأت من قصاصات الجرائد التى تعلن عن الأدوية حقيبة قديمة عندها . وبينهن عايدة ذات الجمال الطائش والقلب والعواطف التى تتسع لمائة حبيب ، وهذه درية ذات الماضى

القصير الذى تلمع فى نواحيه الدموع والكبرياء ، والحسن والطموح . يخطر « راضى » على بالها خطرات فتحول قلبها عن طريقه عنوة وقسرا كما تدفع الظمآن عن أن يرد الحوض .

وسكن الليل عليها وحدها وكان ليلا ربيعيا هادئا يتنفس بسهولة ، وأحست درية فى صدرها سعة لم تألفها من قبل ، على أن الهدوء كان شاملا والمدرسة كانت ساكنة خالية كأنها تريد أن تستجم من صداع النهار ، كانت الثلاث الأخريات قد سافرن وقررت آخرهن فى الرحيل رحيلها فجأة وعلى غير انتظار فخلا المكان على درية ، ولم يكن من المعقول أن تسافر مرغمة لأنها كانت فى القاهرة فى آخر الأسبوع المنصرم .

وأخذت تدور فى الحجرات كأنها تفتش عن شىء لا تجده ، وربما كانت لا تعرف الذى تفتش عنه ، ثم انقلبت إلى مفتاح المذياع تديره فإذا به صامت لا يتكلم ، لقد أرهقته عايدة فى إرساله إثر « أسطوانات » الغرام فى كل محطة وفى كل قطر فغرق الليلة بين ركام المتاعب ، وقادتها قدماها نحو النافذة فهصرت ستارها ثم انحنت على ذراعيها . وطالعت من الكون وجها رائعا تلمع فيه البسمات من كل جانب كأنه يحييها ، حتى ذوائب شجرة المانجو برقت تحت أشعة القمر كأنها ثوب من المخمل ، وقلبت وجهها فى كل صوب فأحست فتنة ساكنة تتسرب إلى أعماق النفوس ، ثم قلبت وجهها فى السماء فرأت القمر يمشى الهوينا حتى يلامس سحابة لعلها بقية من ميراث فصل الشتاء ، ويبدأ القمر فى

خوضها فتبدأ درية فى الغناء !!

لقد غنت من قبل وهى فى المطبخ إلى جانب موقد البترول وجعلت من عجيجه موسيقا تراسل نبراتها الحلوة ، ثم غنت مرة ومرات بين زميلاتها فى المسكن محاكية الشهيرات من أهل الفن . ولكنها فى هذه الليلة أحست كأن فى باطنها كنزا . وجعل القمر يتخايل متعثرا فى لجة السحابة وهى تصب أنغامها فى سكون الليل ، ثم أطل عليها القمر مرة أخرى فخالت أنها نجته من الغرق وأنها أرسلت إليه حبالا من صوتها الفضى حتى انتشلته !! فابتسمت !!

ثم أوت إلى فراشها ، لكن تصفيق الجمهور وهتافه باتا يدويان فى آذانها حتى نهضت من الفراش !!

٥

فقد « راضى » توازنه بعد تلك الصدمة التى أهدتها إليه صديقته باكرة وعلى غير انتظار ، كانت كأنها واسطته إلى الوجود فلما فقدها لم يعد يرى شيئا ، ثم استرد من يديها أعصابا تالفة ممزقة كأنها لعاب الشمس وبخاصة بعد أن سمع رأى صديقه سعيد الذى قال وهو يرسل حلقات الدخان من فمه كثيفة دوارة ويشرد بصره بين كل فينة وفينة :

ـــ إننى أرثى لبلواك يا صديقى .. حقيقة إنها كارثة .. أنا شخصيا لم أجرب الحب الذى عرفتموه لأننى رجل خجول ، ولا تفهم من ذلك أن قلبى لا ينغم خفقاته بل هو على العكس ينغمها ويرقص عليها فى وقت واحد . ثم ضحك ضحكة تمثيلية عالية رنانة وقذف ببقية اللفافة من النافذة وتنفس طويلا ثم واصل حديثه :

ـــ يذكرنى قلبى هذا الذى يغنى لنفسه ويرقص على الغناء بالرعاة السذج الذين صورهم شعراء الإغريق . وهكذا وجب أن تعرف أننى أحب ، وأحب كثيرا ، لكنه حب .. من طرف واحد .. من ناحيتى أنا .. وهل أنا شىء قليل ؟!

لكأن صديقتك هذه يا صاحبى قد مزقت فى وجهك ثوبا حريريا سهرت على نسجه من أجلها ليالى طويلة ، فما أقبح ما كافأتك به !!

وأحس راضى كأن هموم الحياة تجمعت على كتفيه حتى سقط بها متهافتا صريعا لا يقوى على الحركة ، وخيل إليه أن سعيدا يعيث فسادا فى جراح قلبه مدعيا أنه يقصد إلى إبرائها ، فأخذ هذا القلب السليم الطيب يشعر بدبيب النقمة فى خلاياه حتى استحالت بعد فترة قصيرة إلى نار تكاد تأكل صاحبها نفسه .

وكان لابد له من أن يشغل وظيفة ما ، لأنه يريد نوعا من العمل ينسيه هموم نفسه . ويا حبذا لو كان بعيدا عن العاصمة ، ليهاجر من مواطن الذكرى ويهجرها ، عسى أن يكتب له لونا جديدا من الحياة ، يسخو عليه فيها بعد القسوة والحرمان ، فيلتقى فى الطريق بالتى تأسو ما جرحته يد الأولى .

وباتت الليالى التى سيقيمها بالقاهرة ليالى تعد على أصابع اليد ، ثم يجىء الأوان الذى سيرحل فيه النصف الثانى لزوجين بخلت عليهما الحوادث فلم تجمع بين شخصيهما .

لم تكن هناك نافذة مفتوحة من الثلاث التى تطل على الشارع ، إلا النافذة الأخيرة التى كانت تنام فيها درية فى مسكن والدها ، وحتى هذه النافذة لم يكن مفتوحا منها إلا مصراع واحد من نصفها الأسفل . مصراع خشبى واحد والزجاج مغلق لأن الجو كان أدنى إلى البرودة ، وكان راضى فى هذه الليلة جاثما خلف المصاريع الخشبية فى نافذ المدرسة

يرقب ويتسمع عله يرى خيالا أو يسمع صوتا من فتاة أخلفت ظنونه كلها ، وكان يسائل نفسه فى إلحاح وقسوة وألم عن الذى دعاه إلى أن يتجشم هذا الذى تجشمه فتجيبه إجابات كثيرة لم يقر منها إلا آخر واحدة فيها : وهى أنه يريد أن يلقى على الشريرة نظرة أخيرة . يريد أن يعرف ملامح الأفاعى فأدمن النظر إليها حتى لا يخدع فيها مرة أخرى !!

ظل الخيال الذى ظنه خيالها يرف من خلف الزجاج وهو يغدو ويروح ، والصوت الرقيق الخافت الذى ظنه صوتها يبعد إلى داخل المسكن حتى يغيب ويقرب من النافذة حتى يسمع ، ظل كذلك فترة كان راضى خلالها يحس أنفاس الثلوج على أطرافه وحرارة الجمر بين ضلوعه وصوالج الشكوك تتقاذفه فيما بينها فى غدو ورواح مثل كرة « البنج بنج » ظل كذلك حتى وقعت المعجزة فسمع صوتا ينادى فى الحارة هاتفا باسم مخيمر أفندى ، ولعله كان أحد أصدقائه من رواد حانة « حسن الختام » لأن عقدة خفيفة كانت بادية الأثر على حواشى ندائه . وتتابعت ضربات قلب راضى وتداركت أنفاسه واقتربت الساعة الحاسمة فى ليلته الأخيرة ، وتراقص الخيال خلف الزجاج المضىء فتوقع خيرا من انفتاح هذه النافذة ، وكانت صاحبة اليد التى تعالج المصراع تتحدث بصوت مرتفع نوعا ، فاحت منه رائحة صوت درية ، فعض الرابض وراء النافذة شفتيه حتى كاد يدميهما ، وعلقت عيناه بالخيال ليلقى على الشريرة نظرة أخيرة !!

كان هنالك شبه كبير بين الفتاتين ، لكنها لم تكن هى على كل حال . كانت أختها التى تليها فى الميلاد ، وقد بدا وجهها تحت الظلام الخفيف

وسط شعرها الأسود ، كأنه وجه أختها الكبرى .. ولما ارتفع صوتها يجيب المنادى بأن أبى قد سبقك بالخروج ، أدرك راضى أن موسيقا صوت هذه لم يفسدها حتى الآن شيء من الكبرياء الذى أفسد نبرات أختها ، ولم يبق عليه بعد ذلك إلا أن يتحسس طريقه فى الظلام راجعا أدراجه .

* * *

كان يلقى على محطة القاهرة وهو فى نافذة القطار فى الصباح الباكر نظرة عاتبة حزينة فيها حب وفيها دموع . ولكن المدينة بدت وكأنها مشغولة فلم تبادله العواطف ولم تأبه لرحيله حتى ذكر ذلك الوداع الجافى الخشن الذى كان بينه وبينها يوم جلسا على القنطرة المقوسة . وجعل القطار يتحرك بعد أن تلاشى بخار صفارته فى الغلالة الضبابية التى نشرها الفجر فى سماء المدينة ولم يكن راضى متبينا كل ما تقع عليه عيناه لأن سيحا من الدموع برق على مقلتيه !! ومن العجيب أننا نسخو بالدمعة على كل وطن نفارقه وكل أرض نرحل عنها فنبكى فيها أيام السعادة كما نبكى فيها أيام الشقاء !!

كان متاعه خفيفا ولو أن همه كان جد ثقيل . ومعظم متاعه حزم من كتب ومجلات جعلها ذخيرة للمدة التى سيقيمها فى منفاه . كان القطار مجدا فى سيره به نحو الشمال الشرقى إلى أحد موانى البحر الأحمر . فلما وصل إلى هناك بعد ساعات استأنف حمل همه ومتاعه إلى الشاطئ لتشق به لجة البحر إحدى بواخر المصلحة .. مصلحة الموانى والمنائر التى أصبح

راضى أحد الموظفين التابعين لها والساهرين على الخدمة العامة فى إحدى مناراتها البعيدة عن شواطئ البحر .

« عزيزى سعيد » :

وددت أن أكتب إليك منذ الوهلة الأولى حين تحركت بى الباخرة الصغيرة نحو مقر عملى الجديد ولكننى آثرت أن أتريث حتى أرى ماذا هنالك ثم أصف كل ما حولى .. لا تعجب يا أخى إن رأيت فى عبارتى شيئا من الحياة .. لا تعجب أبدا فإننى أحسست منذ رأيت هذا العالم المائى أن غلافا كثيفا بدأ ينفض من حول قلبى وأنى إن تكلمت فإننى سأجيد وإن كتبت فإننى سأفيد . أصبحت أشبه شىء بالثاكلة أنطقتها الفجيعة فعجب من بلاغة قولها الشعراء .

كان استقبالى رائعا جدا من اللحظة التى تخلت قدماى فيها عن الأرض ، فقد أحس البحر أننى صرت من أبنائه فقابلنى بحماسة حارة فزعت منها وخفت أن أكون من ضحاياها . خيل إلى أنه عملاق عظيم يريد أن يقبل خلقا ضعيفا فهو عرضة لأنه تخنقه القبلة !! ثم جعلت يا أخى أذكر آلامى التى خلفتها على الأرض وأنظر إليها جيدا وأدمن إليها النظر فلا أراها إلا حقيرة صغيرة لأننى أنظر إليها من فوق جبل عظيم .

هذا العالم الذى سأعيش فوق أديمه ليس للضعفاء حساب فيه لأن كل شىء فيه قوى ، وأنتم على الأرض يا صديقى قد تشفقون على الضعيف فتتركونه يحس بضعفه ويحيا منغصا به . أما عندنا فإنه يطوى مرة واحدة حيث يهوى إلى الأعماق .

لا أريد أن أسئمك بأفكار سقيمة ربما سخرتم منها — أهل الأرض ، وربما اتهمتنى بأن بقايا من الألم الذى ارتحلت به بل ومن أجله ، قد أملت على شيئا مما أخطه إليك ، ولذلك سأحدثك عن حياتى ، وأقصد الحياة التى تقابل عندكم السير فى الطرقات ، والسعى فى الأرض والتطلع أحيانا إلى السما .

لقد انقطعت العلاقات بينى وبين اليابسة من ثلاثة أيام ، ومنذ ذلك التاريخ أحسست بأننى أحتقر الأرض .. أنظر إليها أنا بعين خيالى ، كما تنظر أنت إلى كرة صغيرة من الطين تصنعها بيديك !! وحتى التى أسلمتنى إلى هذا المكان كنت أنظر إليها وهى راجعة نظرة فيها كثير من الرثاء .

إننا هنا الأغلبية .. ألم تر أن الله جعل الماء ثلاثة الأرباع ، وجعل الطين ربعا واحدا ، أنتم من الطين وتمشون على الطين أما نحن فإننا نحيا تحت السماء ، كأننا نعيش فى جوف كرة مفرغة من الزجاج الصافى .

هل تستطيع الذكريات التى لم يحن الوقت بعد لأن تفقد جدتها ، أن تعبر إلى وأن تناوشنى ؟! إننى أخشى عليها أن تتحطم على شعاب المرجان المنتثرة فوضى فى هذه المنطقة والتى يغطى بعضها الطحلب . فى هذه المنارة أستطيع ألا أحزن وربما قدرت على التفكير فى كل ما يسرنى .. سأفكر فى كل قوى لأن موسيقى البحر قوية دائما وبخاصة فى هذه الشهور .

فقدنا التعاون على رقعة الأرض فألفيناه هنا على رقعة الماء . فنحن خمسة من الموظفين أكبرنا مأمور المنارة وأصغرنا الخادم ، ولكننا كلنا

خدام ، ليس هنالك فيما يبدو لى رئيس ومرءوس ولا مسود . فلماذا ننسى كبرياءنا وغرورنا أحيانا ، لماذا ؟ إننى أسائلك !!

لم آس على شيء منذ صعدت قمة البرج قدر ما أسيت على أننى لم أخلق شاعرا . الكون من حولنا مقطوعة شعرية تنشدها أفواه الملائكة ، فلو أننا تبادلنا الأماكن يا صديقى لقلت أنت من الأشعار ما تحلم العذارى بكلماته وهن وراء أستار المخادع .

ولكنى أرى الأحداث ترمى بنا جزافا وتعاملنا بطريقة لا تخلو من السخرية ، حين تيسر لمبيض الحيطان بدل « فرشاته » الضخمة وقصعته الكبيرة « صندوقا » و « ريشة » من التى تستعمل فى رسم اللوحات الفنية .

رئيسنا المأمور رجل طيب قال عنه الذين عرفوه : إنه طويل الصمت لا يمل السكوت ، وقيل أيضا : إنه تزوج ولكن عش الزوجية خنقه ففر منه يطلب الهواء الطلق ، ولم يزد على هذا الذى قاله فنقل عنه ، وهو يقضى أوقات النهار ومعظم أوقات الليل قارئا ، ترى يا أخى هل لدغته امرأة كالتى لدغتنى ؟ وهل يعمل على نسيانها كما أعمل أنا الآخر ؟ على أن كل الأشياء عندنا تسارع إلى التلف ما لم تحفظها فى الثلاجة ، وليس عندنا ثلاجة نحفظ فيها الذكريات ، فعسى أن ننسى ؟! وسلاما على ساكنى الأرض !!

خيل إلى سعيد بعد أن قرأ هذه الرسالة أن صديقه راضى إنما سكن المريخ فلم تعد هناك علاقة بينه وبين هذا العالم . ثم ابتسم بعد أن فرغ منها

ابتسامة فيها أسف وفيها رثاء ، ولكنه عاد فذكر أن حال راضى خير من حاله لأن « الهزيع الأول من ليل شبابه » قد ولى كما يقول و لم يخط فى سبيل الاستقرار خطوة فعالة . يقول عن نفسه إنه شاعر ويحلم بأنه سيكون فى يوم من الأيام صحفيا ناجحا ، تقدم مقالاته صباح كل يوم مع الفطور ممثلة نوعا من الغذاء يجب أن يتناوله الناس مع الشروق ، ولكنه حتى الآن يقول الشعر لنفسه ولأصدقائه ولا يكاد الناس يحسون أنه موجود !!

وحتى الدراسة الثانوية لم يكملها على الوضع العادى الذى يناله أقل التلاميذ حظا من الذكاء ومن الثروة . لكنه شعلة من العواطف ، وهو أشد الناس حساسية بما يضطرم بين جوانحه ، لقد كان يحس أن فى داخله حرارة ربما قيض لها أن تتحول إلى مشعل .. مشعل عظيم .. يضىء للأجيال !!

وقد يرتاح سعيد لهذه الفكرة ، ولكن إلى ثوان عدة ، ثم ينفجر بعدها مقهقها ساخرا من نفسه ، وينزوى فى استخزاء ذليل كأن عيون الأجيال التى يريد أن يضىء لها قد تجمهرت عليه لترميه بالغباوة وبالجنون .

و لم يبد كوكب سعد واحد فى حياة هؤلاء الناس طوال ذلك العام ، كأن المقادير قد ربطت بينهم جميعا برباط لا يرى ولا يحس .

درية فى طنطا كثيرة التفكير فى أمر أسرتها وبخاصة أبوها الذى تنهش منه الليالى القطعة بعد القطعة على الرغم من المعونة المالية الشهرية التى يستهلك هو معظمها فى غذاء ودواء ، ولولا العزاء والسلوان اللذان تقدمهما عايدة وعفيفة فى كل ليلة للمجموع لاستحالت حياة الفتاة إلى

سعير لا يطاق . فيحدث مرة أن تستيقظ عفيفة من نومها فى سكون الليل على صوت النافذة وهى تفتح فتتناعس حتى يتهيأ لها أن ترى زميلتها عايدة تطل فى الظلام نحو الشرق ، ثم تخرج مصباحا كهربائيا من جيبها وتبدأ فى إرسال إشارات ضوئية ، فلا تلبث حتى ترى ضوءا آخر يتراقص فى إحدى النوافذ على بعد . كأن اللقاء بين هذين الحبيبين لم يكفهما للتخفف مما بهما فلجآ إلى هذا العمل .

و لم تصبر عفيفة التى حرمت هذه الفاكهة على ما رأت زميلتها تفعله ، فثارت بها وعدت هذا طيشا وتصرفا يسىء إلى سمعة المجموع ، وعلا شجارهما حتى سمعه من فى الغرفة الأخرى ، ثم اجتمعن أربعتهن ، وفض الخلاف ولكن بشكل مضحك .

على أن هذا التزمت الذى أبدته عفيفة لم يكن قادرا على تغيير حالها فظلت كما كانت تلفق كل مساء حكاية مغرم هام بها فى شبابها حتى كانت سببا لفشله فى الدراسة . وربما بكت عفيفة لمثل هذه الذكرى فتلمع الدموع وراء منظارها السميك كما تلمع حبات المطر على زجاج النوافذ ، بل وربما عزت سوء بختها مع بعض الرجال الآن إلى التجنى والتدلل والظلم والهجر من غير سبب لكثير من الأحباب فى عصرها الخالى . يحدث هذا فتضحك الآنسات مرحا أو يبكين حسرة ، أو يفعل بعضهن هذا ويفعل بعضهن ذلك ، لكن الوقت كان يستهلك ويمر بسرعة على كل حال ، وربما نسيت الحزينة منهن أحزانها .

هذا شأن درية فى ذلك العام المنصرم ، أما راضى فقد جعلت رسائله

إلى سعيد تأخذ فى كل مرة طابعا غير الطابع الذى فات ، كأنما كان يكتب وهو تحت تأثير سلطان مخدر أخذ يتقلص ظل سلطانه عن رأس ساكن المنارات :

« أخى سعيد :

هل أنت سعيد ؟ أخشى أن يكون نصيبك من اسمك كنصيبى من اسمى تماما فتكون « شقيا » كما أنا « ساخط » ... لا تؤاخذنى يا صديقى فقد عدت إلى البحر الأحمر مرة أخرى بعد أن أقمت على شاطئ البحر الأبيض ثلاثة شهور . وهكذا سأقضى العمر بين بحر أبيض وآخر أحمر فى ظل حظى الأسود ، لكن المنار الذى دخلته فى هذه المرة يختلف عن المنارين السابقين لأنه قائم على أعمدة منصوبة بين الماء والسماء ، ولتكن هذه المنارات كما تكون فإننى ضجرت .

أستطيع الآن أن أحدثك بلغة البحر .. لقد أنصت إليه كثيرا وهو ثرثار لا يكف عن الكلام ، يخاطبنى فى كل وقت حتى فى أوقات العمل ساعة أشرف عليه من البرج العالى وأربض إلى جانب المصباح الذى يتراقص على الزئبق لأرى ذبذبات الشعاع فى كل صوب .

يخيل إلى فى بعض الأحيان حين تصرخ الريح وتجيبها الأمواج ويتدثر الموظفون بأغطيتهم ثم يعبرون إلى الأرض بأفكارهم فتختفى أصوات البشر نهائيا فى عالمنا الكبير — يخيل إلى فى هذه الحالة أننا عما قريب سنتحول إلى نوع من « الترسة البحرية » أعنى أننا سنكون كسلحفاة البر التى نزلت إلى الماء ، فتنمو لنا زعانف ويكتسى جسدنا بالفلوس ونتنفس

الهواء الذائب ، وأننا سنكون نواة لمملكة جديدة مائية عظيمة لا ينقصها شيء سوى « حواء » .

وهل تكون حواء الماء خداعة كحواء الطين ، تلك التى قد يتصور الرجل منا فى بعض ساعاته حين يطبق عليه الصمت والظلام أن فى استطاعته أن يركب إليها شعاع الفنار متعلقا به كما يتعلق بالحبل ، ليلقى عليها نظرة ثم يسألها مرة واحدة قائلا لها : أتذكريننى ؟ ثم يعود بنفس الطريق . سعيد . سلاما على ساكنى الأرض .

« عزيزى سعيد :

سأحاول أن أراك يا صديقى فى فرصة قريبة لأنى شديد الحنين إليك بل شديد الحنين إلى القاهرة بالذات ولو أنها قست على قلبى فاعتصرته بقوة لم يخالطها حنان . لقد مللت الوحدة يا سعيد ، لست أقصد الوحدة الخارجية لأن الناس من حولى كثير لكننى أقصد الوحدة الداخلية ، أحس كأننى شيء مجوف ، أو كأن فى باطنى صحراء .. ليس هناك عمران ولا أنس ولا نور . أو كأننى منقسم على نفسى فأعلن بعض الحرب على بعضى الآخر ، ثم كأن هذه الحال لن تنتهى أبد الدهر حتى تظهر يد ما تلوح بغصن من الزيتون ، ولمن تكون هذه اليد ؟! لابد أن تكون يد امرأة !!

لا تعجب يا صديقى لأننا قد نذكر لين الأفاعى وننسى سمها ، وهكذا نقضى العمر تغرينا واحدة بواحدة ، حتى نسلم أنفسنا للتى يغلب لينها على سمها .

إن مأمور المنارة الآن نائم والكتاب مفتوح بين يديه ، وهناك رجل منا يغسل ثيابه على حين أخذ الخادم يصيد شيئا من السمك ، وقد علمتنى هذه الأيام كيف أستغرق فى التفكير فأستعيد ساعات حياتى ساعة ساعة ، حتى إذا ما بدا على أفقها القريب سحابها الدامى توقفت عن التفكير حتى لا أشحن وحدتى بالهموم .

هل يقدر للإنسان أن يلتقى يوما ما بأناس نقم عليهم فيقول لهم كلمة تفتر من حدة النقمة حتى ولو لم يبادلوه الحديث ؟! معذرة فإننى خاضع لقانون البحر ، أعنى لقانون الماء لا التراب ، وأن الحنين عندنا يا صديقى يشب من أجل الأصدقاء والأعداء على السواء فلا تحزن . وسلاما على ساكنى الأرض » .

* * *

ويهبط راضى إلى القاهرة فى ضحا يوم من الأيام فتنظر إليه غير آبهة به كذلك .

كان قاصدا إلى بيت أخيه الكبير الذى حمى يتمه وحاط طفولته ، وكان شديد الشوق إليه وإلى سعيد ، وكان فى أعماق نفسه شوق آخر كالجمرة التى يغطيها الرماد .

ثم قضى فى القاهرة بعض مآرب لم يكن للقلب شأن بها ولا دخل فيها إلا إذا استثنينا يوما واحدا خرج راضى فى مسائه وكأن على وجهه بقية سكر أو أثار نوم . كان يمشى فى الشوارع ساهما شأن الذى يفتش فى الزحام عن وجه يعرفه فلا يلقاه . وتمضى عليه ساعة من الزمن يلقى نفسه

فى أخرياتها فجأة وبدون تدبير واقفا أمام باب ويده تدقه بجمع قبضتها ليجيبه من فى الداخل ، ثم ينفتح الباب الخشبى المصمت الغليظ عن وجه غلام فى الثامنة من عمره يطل برأسه من الفرجة التى تكون بين المصراعين ويقول : نعم يا سيدى .. ماذا تريد ؟ وتلمع عينا الغلام بعجب يجعل الشاب يتلعثم ويضطرب ، ويبقى كل منهما فى موقفه يتبادلان النظر ثم يتكلم راضى قائلا : إننى أريد والدك .. فرد عليه الغلام بجفوة وثورة : هل تمزح أيها السيد ؟ إن أبى مات من زمن طويل ! فاستدرك راضى بسرعة وهو يبتلع ريقه قائلا : معذرة يا بنى إننى آسف .. وأقصد أن أقول والدتك .. ستعرفنى هى حين ترانى . ويرتد الباب مقفلا فى وجهه بيد الغلام . ولكن راضى لا يزايل مكانه لأنه لم يسمع صوت المتراس الحديدى وهو ينجر بعد الإقفال فأيقن أن أحدا سيعود . وتمضى دقائق تطل بعدها من بين المصراعين خادمة مدرسة البنات وتحملق فى وجه الواقف مستعينة بالشعاع الخافت الذى يرسله أحد المصابيح فى الحارة من وراء زجاجه المعتم ، حتى إذا ما عرفت ملامحه فغرت فاها ثم شهقت وهى تدق صدرها وتقول : أهذا هوأنت . ألا زلت تذكر يا بنى ؟! تعال معى . اتبعنى .

وما إن جلسا فى مكان ملائم حتى شرعت تقول : إن فى الدنيا قلوبا صالحة حتى يومنا هذا ، ظننت يا بنى أن الوفاء كان موقوفا على زمننا فلما انقضى ولى الوفاء . ولكننى رأيت . أنت شاب كريم ومن أجل طيبة نفسك رأيتنى أهتم بأخبارها من أجل أنك مهتم بها ، ليتك بكرت فى

حضورك يومين اثنين ، كانت هنا ثم رجعت طنطا . أبوها مريض ، ليس مريضا بالمعنى الذى يؤذن بالخطر لكنه كأنما كان منتظرا أن يكون لابنته مرتب ثم يتهدم كما يتهدم البناء القديم . لماذا لا تتزوجها ما دمت تحبها ؟ لكنها على كل حال تسعى لتعود إلى القاهرة . هل تنوى أن تخطبها ؟ . آه . أشكر لك هذه الهدية الجميلة ، ولكن لماذا تكلف نفسك ؟ ليتنى أستطيع أن أقول لك عنها شيئا !! فصاح فيها بصوت مكتوم : احذرى . أرجوك فإننى سأنساها . فأدارت المرأة وجهها نحو أحد الحيطان لتخفى عنه بسمة ذات مغزى .

كان مسكن درية فى القاهرة فى هذه الليلة غارقا فى صمت وسكون لأن معنوية مخيمر أفندى كانت سيئة وبدأ يفكر فى الموت ، وكانت زوجته تسمع إليه فى ضجر وتشاؤم ثم ترد عليه بما يدعم نفسه المنهارة . أما القسم الداخلى فى مدرسة الفنون بطنطا فإنه لم يكن فى هذه الليلة أقل وحشة ولا أخف صمتا .

لقد غابت إحداهن فصرن ثلاثا من المدرسات فقط ، وكانت الغائبة من بينهن صغيرة الشأن فى أعينهن لكنهن الليلة تبين حقيقة شخصيتها ، لأن كثيرا من الأشياء فى الدنيا لا يستطيع أن يخبرنا بقيمته إزاءنا إلا وهو بعيد عنا ، أما وهو قريب منا فإنه لا يستطيع أن يفصح فنستصغر شأنه . وهكذا أحسسن أن عفيفة كانت شيئا مهما ، لأن وحشة وصمتا ألقت كلكلها على المكان إلى عدة ساعات من الليلة الأولى ، فأكبت درية على طرز تعمله ، ووضعت نجاح يدها على جنبها الأيمن حيث موضع الألم فى

كبدها فترة تمددت بعدها فى الفراش دون أن تنام ، أما عايدة فقد كانت تعبث بمصباح الجيب ساعة وتعود إلى قصة غرام لتقرأ فيها ساعة أخرى .

وكأنما كان نقل عفيفة بداية لانفراط عقد الأزهار هذا الذى يجمعه القسم الداخلى فى مدرسة طنطا ، فلم تمض شهور أخر حتى أخطرت المدرسة بنقل الآنسة نجاح إلى إحدى مدن الوجه البحرى كذلك ، وقد كانت فى الليلة الأخيرة لها بين زميلاتها كثيرة الدمع زائدة الشحوب ، على أن درية كانت دامعة القلب شاحبة النفس لتبدل الأحوال من حولها ، لأن الزميلة الجديدة التى حلت محل عفيفة قضت الأقدار بأن تجعلها من اللائى يفضلن فى الحياة طريقة عايدة ، ثم تقضى الأقدار مرة أخرى بأن تكون خليفة نجاح من هذا الطراز كذلك ، وعندئذ لا يعلم إلا الله كيف يكون الجحيم الذى ستحيا فيه درية .

وقد وقع الذى خافت منه وكان هذا بدء اضطهاد لنفسها المتكبرة فى الغربة والوحدة ، وكتبت إلى أبيها تصف له هذه المتاعب وتستحثه على أن يحشد همته وواسطته حتى يستمع لها أولو الأمر ، وإن ردود أبيها كانت تضاعف من آلامها وتثقل قلبها بالأحزان :

« إننى يا بنيتى رجل مريض ولكننى لا أستطيع أن أتناسى ما تطلبين . وجدت ناسا كثيرين يتزاحمون على باب كبيرة المفتشات ، وكان طلبنا واحدا . وقد ثارت السيدة فى وجهى قائلة : كلنا نريد أن نعيش فى القاهرة ، إذن فلنحرق الريف !! وأعقبت صرختها هذه بأن رمت بقلمها على الأرض . وجاهدت نفسى حتى منعتها من أن أنبهها إلى شىء

ربما كانت غير ذاكرته ، هذا الشيء هو أنها امرأة تخاطب رجلا !!

من أجل عينيك يا درية سألجأ إلى ناس جدد .. ربما لجأت إلى القاضى ، وربما لجأت إلى عملك حسن أفندى ليكلم ابن عمه مراد أفندى فهو يعرف الأستاذ صالح وهو صديق عزيز لمجدى بك الذى يسهر مع إلهامى بك زوج السيدة المفتشة . ويقولون أيضا : إن الساعى الذى يجلس على الكرسى أمام باب كبيرة المفتشات ، قريب لأحد المحضرين إخواننا فى محكمة السيدة زينب ، فعسى أن يوفقنا الله .

أرجوك يا درية أن تزيدى المبلغ الشهرى هذه المرة لأننى أنفق كثيرا فى السعى لنقلك إلى القاهرة . ولا زلت أدعو لك بالسعادة » ..

كانت درية تحس بغربة مزدوجة بين زميلاتها الجديدات ، لم يكن بينها وبينهن انسجام فشعرت بوطأة الوحدة ، لذلك كانت تعمد إلى أن تخرج وحدها بالطبع للنزهة فى شوارع طنطا التى تصل ما بين الريف والمدينة . وراعها ذات يوم أنها سمعت هامسا يهتف وراءها بحديث غزل ونجوى ، فلما التفتت إليه ألفته حبيب عايدة ذا المصباح الكهربائى الليلى الذى يسهر به أمام النافذة وصاحب الشباب الذى تموهه تفاهة لا تدعو إلى الإعجاب ولا إلى الاحترام . كان شبابه من نوع ذلك الطلاء الذهبى الكاذب الذى يبرق على الحلى الرخيص الزائف .

لقد لقيها مرة هى وعايدة أيام لم يكن بينهما خلاف ، ولعله أعجب بدرية أو لعله لم يعد معجبا بعايدة ، فقد يكون من طرازها المحب للتغيير المتعلق بكل من يصادفه حتى كأن قلبه من المرافق العامة .

وردته الآنسة ردا جميلا لكنه كان مصرا فلم يرتد ، فقست عليه شيئا ما حين قالت له : إنك صديق صديقتى وليس من الوفاء أن يخدش أحدنا هذه الصداقة . فحاد عنها الفتى ، ثم جعل يراقبها ويعاودها مرة بعد مرة كأن حديثها المتزن وهيئتها الوقور ووفاءها للزميلة أشعلت كلها فى قلب هذا الشاب نار حب حقيقية ، ولم يكف عن إلحاحه حتى رأتهما عايدة فى أصيل أحد الأيام ، ولم تعد كلمة من كلمات درية تنفذ إلى سمع زميلتها فتقبل عذرا أو شفاعة ، ثم كانت هذه الحادثة بمثابة الحطب الجزل تلقى به على النار المتأججة حتى أصبح القسم الداخلى بالنسبة إلى درية سجنا كئيبا تمرح من حولها فيه الشياطين .

أخذت خطاباتها إلى القاهرة تزيد وتكثر وتفيض بالهم والقلق والأحزان ، وأخذت الردود التى تتلقاها تؤرجحها بين اليأس والرجاء وتحمل إليها فى كل مرة اسما جديدا من أسماء الوسطاء ، حتى ضاقت نفسها فسافرت لترى الأسرة ثم عادت إلى طنطا بعد يومين .

لكن مقامها لم يطل فيها . لم تمض أيام ثلاثة حتى كانت تحمل عدة حقائب بينها حقيبة أبيها ، وكانت تنظر إليها وهى على كتف أحد الحمالين فى ارتباك وشك ، على الرغم من أنها كانت متأكدة من سلامة قفلها .

كانت تذكر يوم دخلت بها هذه المدينة منذ عامين على التقريب . يوم لفظت محتوياها على سلم هذا النفق الذى تصعد الآن درجاته متخذة طريقها إلى العاصمة ، وكأنما أرادت هذه الحقيبة أن تبشرها بمقام غير سعيد فها هى ذى خارجة من طنطا مهيضة الجناح مكسورة الخاطر .

لم تطق البقاء بين هؤلاء الآنسات الثلاث اللائى يبذلن لها كل ليلة كيدا جديدا ، وختمن هذا البذل الكريم بأن فتحت عايـدة صوان ملابسها فى غيبتها وطرزت لها ملابسها بحروق صغيرة نشرتها فى كل الملابس حتى أصبحت درية لا تملك إلا الثوبين الذين صحباها إلى القاهرة .

كان القطار المسافر نحو الجنوب يسترجع أنفاسه بعد صفرته الأخيرة التى ينذر بها المسافرين ، ودرية تلقى على المدينة نظرة رطبها الدمع ، فيها أسى وأسف لم يشبهما شيء من الذكريات الجميلة !!

٦

أصبحت سعيدة فى محل الأزياء الكبير الذى يقوم فى أهم شوارع القاهرة . أصبحت سعيدة جدا به ، فلا وساطة ولا شفعاء ، ولا حب ولا دسائس . ثم هى بعد ذلك كله تراقب أحوال أهلها عن كثب وتتعرف إلى كثير من كرائم السيدات وتطالع وجوها جديدة فى كل يوم ، وتعيش فى العاصمة الكبرى أحب المدائن إلى النفوس .

كانت حياتها ندية خصبة ليس فيها شيء جاف إلا منطقة القلب ، وكانت تفكر فى الماضى وتتمنى لو أنه عاد ، وقد عن لها فى بعض أيام الآحاد أن تذهب إلى حديقة من حدائق العاصمة ، ففعلت ، وهناك وقفت على القنطرة المقوسة ثم أغمضت عينيها وغابت قليلا عن الوجود ، لقد صنعت لنفسها هذه السكرة الخفيفة القصيرة الحلوة حين تخيلت أن شعاع الشمس الغاربة يقع على خدها وأن رساما على مقربة منها يجمع ألوانه وألواحه وأن موسيقيا صغيرا ناشئا يجلس هنالك على العشب وأنه يعزف لحنا حزينا يهديه إلى قلبين ، وأن زوجا من طيور الماء جعل يتناوش على شط البحيرة القريبة . ثم فتحت عينيها !!

على أن خادمة مدرسة البنات تجاه بيتها كانت كثيرا ما تلقاها وكثيرا ما تحييها لتنبهها إلى وجودها فترى درية فى عينيها شيئا ولكنها تهمل هذا الخاطر . ثم هيأت الأيام فرصة لأن تلقاها يوم دخلت درية هذه المدرسة مع إحدى أخواتها لشأن من الشئون التى تعرض للتلاميذ والتلميذات ، فالتقت وهى خارجة بهذه الخادمة ورأت درية عينيها وهما تلمعان بمعنى ظنته طلبا لنفحة من تلك التى ينفح بها الموظفون خدمهم ، فتوقفت عن السير ومدت إليها يدها فى الخفاء . وكأنما كان هذا العمل سببا فى أن تشجعت المرأة تقول :

ـــ شكرا يا سيدتى .. لم يخب ظنى فيك فأنت طيبة القلب ، ولقد كان هو طيبا دائما معى .

فشحب وجه الفتاة واختلجت شفتها ولكنها لم تقل شيئا ، وهمت بأن تستأنف سيرها لكن خواطرها قيدتها حيث كانت واقفة وأحست كأن رائحة من الماضى تهب على أنفها بعنف ، ثم ذكرت شيئا قديما : لقد كان المسكين يراقبها من إحدى هذه النوافذ . ثم رفعت كفها من على جبينها وقالت كأنما نفضت عن نفسها حلما :

ـــ عمن تتكلمين يا خالتى ؟! من هو ذلك الطيب القلب ؟!

فأجابت : عنه هو .. عن الذى تقصدينه .. نحن نتحدث عن رجل واحد . لقد زارنى يا سيدتى منذ أمد قريب ، لكنك كنت قد رجعت إلى طنطا ، كنت أظن أن جيلنا نحن قد دفن الإخلاص فلن نرى فى شيخوختنا قلوبا شابة مخلصة فى حبها ، ولكننى .. رأيت

راضى — وأطرقت الفتاة كأنما ثقلت على رأسها الذكرى — ثم عادت فهمست ، لكن .. لا أظن أن أحدا يعرف مكانه — فسارعت السيدة تجيبها كأنها فخور بأن تعرف : أنا وحدى التى أعرف . آه . — إنه فى ... (ووضعت يدها على جبينها لتتذكر) فى البحر الأحمر ينظر إلى السفن . هذا مبلغ علمى يا فتاتى .. أسعدك الله .

كانت درية تظن بعد أن تلقت هذه الأخبار أنها ستقوم حيال راضى بعمل ما ولكنها نسيت أو تناست وغابت عن ماضيها مرة أخرى فى عملها اليومى الكثير وحديث من تلقى من كرائم السيدات . ولعل زوجة الأستاذ رضوان كانت أحب العقيلات إلى قلبها ، ومن ذا يكون الأستاذ رضوان :

موسيقى كبير ولده الجيل الخالى ، حبا مع الموسيقى منذ خمسين عاما ثم شب فوهبها شبابه وعمره حتى كان رائدها للفنانين جميعا من أبناء هذا الجيل ، طويل ناحل كأنه نغمة هادئة ممدودة ، يطالعك منه وجه ناصع مستطيل ملأت التجاعيد صفحتيه . وقد يروقك أو يؤلمك انتفاخ خفيف فى أسفل العينين تظنه فى أول الأمر أثرا من آثار السهر ولكنك إذا أدمنت إليه النظر عرفت أنه قطعة من وجهه تجمعت فيه بعد أن تخطى الأربعين بقليل . وعلى رأسه تاجان أحدهما ناصيته الصلعاء الصافية الناصعة التى كأنها امتداد جميل لجبينه الواضح ووجهه البشوش ، وأما تاجه الثانى فشعر غزير فى بقية الرأس يشتعل فيه الشيب وإنما أحرقه إحراقا ، حتى بدا بياضا خالصا كأنه رغوة الصابون ، ولم يكتب الله لهذا السيد أن ينجب

من زوجته الأولى التى بكاها بكل ألحانه وهو فى الخامسة والأربعين من عمره ، ثم قست عليه الوحدة وعضت الوحشة قلبه الذى لم يبق الزمن فى جسم الأستاذ عضوا طريا إلا هو . فلما وقع له ذلك فتش عن زوجة أراد أن يجعل منها مصباحا يلقى على حجرته شيئا من النور حتى ولو كان فى نافذتها ينير فى الخارج فلا يخص عشه منه إلا شىء قليل ، لا يعدو أن يكون أشعة خلفية تند عن هذا المصباح . حتى هذا كان يرضيه لأنه لا يستطيع أن يؤلف ألحانه فى الظلام الدامس .

ولم تبخل عليه المقادير بهذه الزوجة فقد أعطته إياها ، وكان البون بين عمرهما كبيرا ولكنها كانت كريمة النفس لا يؤلمها الصيام الطويل ، بل كأنها ألهمت أنها موكلة بهذه الشعلة ساهرة على توهجها تمدها بالزيت كلما توج ذروتها الذبول ..

كانت هذه السيدة تزور كثيرا محل الأزياء الكبير الذى تعمل فيه درية ، وكانت فنانة فى انتقاء الملابس واقتنائها كما أن الأستاذ رضوان فنان فى تأليف الألحان . وربطت الحوادث بين السيدة والفتاة ودعتها السيدة لزيارتها فى البيت لتؤدى لها بعض الخدمات المتعلقة بالملابس .

كانت درية مع السيدة فى إحدى حجرات بيتها تطرى لها سمعة زوجها عند الجمهور وتصف لها أثر موسيقاه على نفوس الناس ، وكان طبيعيا أن تبتسم الزوجة من أجل ذلك وتشكر . ثم ما لبثت أن قطعت على درية حديثها قائلة لها : إننى أقضى معظم ساعات النهار مستمعة إلى هذا الحديث من زوجى حتى يخيل إلى أننى سأستحيل فى يوم من الأيام إلى نغمة

ناشزة تتطاير فى الأثير فتستريح من الدنيا ، و ...

وانفتح الباب فجأة بعد نقرة استئذان خفيفة ودخل الأستاذ فى مباذله فحيا وتعرف سريعا على الفتاة وقالت زوجته له : إنها من عشاق موسيقاه ، فابتسم واتجه إلى زوجته قائلا : جئت الآن لأزف إليك بشرى التوفيق الذى هبط على به الوحى فجأة حتى أكملت اللحن الذى كنت متعثرا فيه .. سترقص له قلوب الملايين يا حسنائى الفاتنة . ثم تركهما الأستاذ إلى حجرةوحيه . وبدأت زوجته تكمل حديثها الذى انقطع : إن زوجات الفنانين يا آنسة لا يكدن ينلن من حقوقهن قسطا معقولا ، لأن رجالهن يعيشون دائما مع شياطينهم . والمرأة شيطان . فلا يجتمع شيطانان فى قمقم واحد ، وتضاحكن .

أحب الساعات إلى نفسه هى الساعة التى يبثنى فيها أمانيه ، ثم هو لا يفتر عن ذكر أسماء بعينها فى الشرق والغرب : عبده الحامولى . بيتهوفن . موزار . سيمفونيات . وأشياء أخرى لا أكاد أعرف معناها . لكننى مكلفة بأن أيسر له سبيل الفن فلابد أن أسمع إليه .

فقالت درية فى إطراق وحياء : ليتنى أعيش مع فنان !! فسألتها : أتحبين الموسيقى ؟ فأجابت : والغناء يا سيدتى .. مدى إلى يدك الكريمة .

ولم تمض شهور حتى وضعت درية قدما ثابتة على أول درجة من سلم الفن .

وهكذا يسرت لها الأقدار أن تنسى (راضى) مرة أخرى ..

(الوشاح الأبيض)

ثم تتدارك الليالى وتتتابع الأيام وتأخذ شؤون درية فى التطور بسرعة فلم يعد الشارع ذو البوابة ولا الحى الوطنى العتيق يناسبانها الآن ، فارتحلت الأسرة كلها عنه إلى حى آخر متوسط . وقد نسيت درية أن تلقى نظرة على المدرسة المواجهة وأن تودع خادمتها لأن الحياة بدأت ترحب بها . وتبسط لها ذراعيها فأنستها كل ما حولها .

أما راضى فإن شأنه لم يتغير . كان لا يزال بين المنارات متنقلا من البحر إلى الساحل ، ومن الساحل إلى البحر . ودفعه الحنين منذ وقت بعيد فسافر إلى القاهرة ولقى أخاه . ونزل مع أسرة أخيه لشراء بعض الملابس والحاجات فدفعتهم المصادفة إلى محل الأزياء المعهود ، وتقابلت عيون الحبيبين القديمين هناك ساعة كانت الأسرة تهم بالخروج .

ثم كانت نظرة خاطفة ، لم يهم راضى بإردافها بأخرى حتى سمع أخاه يناديه مستعجلا وحتى كانت درية تزايل مكانها مستجيبة لنداء إحدى السيدات . ثم كان سفر القاهرة . فجاء إلى المدينة وعاد إلى محل الأزياء يفتش عن صاحبة الوجه الذى يشبه وجهها ، فلما لم يجده كذب نظره وشك فيما وقع له ، فاتخذ طريقه إلى مدرسة البنات فلما طرق الباب فتحت له الخادمة بنفسها ، ولولا الظلام الذى كان يسود الفناء لقرأ فى عينيها كل شىء . لكنه استمع بعد قليل إليها وهى تقول :

— لقد تركوا الحى يا بنى . وأصبحت لا أعرف من أمرهم شيئا .

كانت تكلمه فى مكان غير باهر النور ، فخيل إليه أنها شديدة

الشحوب .

ثم أخذت ظلال الحنان التى تبدو دائما على وجهها تغيب قليلا قليلا ، فاكتسى بالقسوة ثم قالت له : ما بك يا بنى ؟ .. أليس فى الدنيا نساء سوى هذه البنية ؟ .. من المحال أن تعبد المرأة رجلا يعبدها . هأنذا قد أصبحت لا أعرف عنها شيئا ، فاذهب لتقتل نفسك ..

وظل صدى هذه العبارات يطن فى أذنيه طول الطريق وهو ذاهب إلى صديقه سعيد ليرى ما حاله ، فألفاه هو هو لم يتغير . وتحدثا ساعة من الزمن ختم راضى بعدها الحديث بقوله :

ـــ ستبقى طول حياتك شاعرا مغمورا ينقش خواطر الليل على بياض الجدار القريب منه وصحفيا مبتدئا حتى تموت . وسأبقى أنا مشرفا على الماء طول حياتى ، لا تربطنى علاقة بقلب واحد على أديم الأرض .

ثم استأنف كل منهما الحياة بهذه الخطا الوئيذة . أما درية فقد كانت مركبة الحظ تجد بها فى طريق السعادة . بدأ اسمها يلمع وكثر رائدوها وعارفوها حتى الأستاذ رضوان نفسه جعل يعدها إحدى المفاخر التى أبرزها إلى الوجود .

وجرى الرخاء فى حياة أسرتها . وجعلت الأم تنظر إلى بنتها نظرة فيها رضا وحب ودعاء لأنها كانت تخشى عليها الخبثاء من الرجال الذين يلتفون حول كل فنانة . لكن كبرياء درية كانت وقاية لها مما خافته عليها أمها ، ولم يكن شىء ينغص على الفتاة حياتها إلا الماضى ، ثم استطاعت

أن تصفى حسابه وأن تدلف به إلى المقبرة بعد أن تعرفت على منصور .
أما عم مخيمر فإن الله لم يكتب له أن يشارك طويلا فى هذا الربيع المخصب لأنه قضى نحبه عقب إشراق شمس التوفيق على فتاته بوقت قصير ، لكنه نال بعد مماته شيئا لم يكن يحلم به وهو حى ، ذلك أن ثلة من رجال الفن مشوا وراء جثمانه وهو فى طريقه إلى المستقر الأخير .

وهذا هو بيتها الخلوى الجديد الصغير :

يبدو كأن مالكه القديم كان شاعرا لأنه أنشأ حديقة وجعل فيها بيتا ، بل يخيل إليك إذا جست خلال هذه الجنة أن بعض الأشجار فيها أطول عمرا من هذا البناء الذى لا يزيد على حجرات ثلاث يصل بينها وبين الباب طريق مشجر كأنهم جوفوه بين الأغصان .

ولم يكن معها فى هذا المسكن سوى عدد قليل من الناس . كانت هى وخادمة كبيرة وغلام يقوم بحاجاتها ، وبواب نوبى وكلب كبير . كان كل شىء من حولها يوقد المتعة ويوقظ الرغبة فى التملى بالحياة .. همسات النسيم تسرى فى ظلمة الليل بين تلافيف الشجر فتقلق مضجع الأغصان لحظة تستسلم بعدها للسكون من جديد .

والنيل المتطرح الهادئ الذى تعكس عليه أضواء المصابيح الوانية والذى يفصل بين درية وبين ضوضاء المدينة . وانتفاضة أو اثنتان من طائر أزعجه طائر . ثم وصوصة يعقبها سكون ، ونبحة واحدة من الكلب تحمل البواب على أن يفتح النافذة المطلة على الحديقة فى حجرته لينظر ماذا فى الخارج ثم يقفل المصراع وينام .. الطبيعة كأنها مستسلمة

توحى للقلوب العسرة بأننا فطرنا على التزاوج وأنه لابد من الأحباب ، حتى لكأن الكون يدخر نوعا من اللذة حرمها على الواحد فلا يجود بها إلا لكل اثنين !!

تلك هى الصورة التى تحلت بها الدنيا فى هذه الليلة والتى ظلت درية تطالعها فى صمت وشرود حتى بدت أهدابها ساكنة لا تطرف إلى مدة غير قصيرة كانت جالسة إلى معزفها لكنها ظلت جامدة لا تناغيه . اللهم إلا نغمتين خافتتين فيهما قصر وضآلة . بخلت بعدهما بالسكون فلم تبدده حتى بنغمات الموسيقا . ثم جعلت من كفها مسندا لخدها بعد أن ألقت على أصابعها الماهرة فى محادثة البيان نظرة قصيرة . ثم سكنت أهدابها وخلت بين فكرها وبين الخلاء :

ما الماضى ؟ .. وما الحاضر ؟ .. وما المستقبل ؟ .. لم تكن هى مَن أناس يشغلهم حاضرهم وكثيرا من الناس لا يفتنهم الحاضر ، أما المستقبل فقد يلهينا الماضى عن أن نفكر فيه . وبخاصة إذا كان ماضينا غير واضح الدلالة فى حاضرنا . أعنى إذا كان مقدمة غير مألوفة للواقع الذى نعيش فيه . كأن يبشر بالشقاء فنرى السعادة أو يبشر بالسعادة فنرى الشقاء ، حينئذ يجرنا الماضى إليه المرة بعد المرة ويلذ لنا أن نفكر فيه .

مرت الأيام .. نعم مرت الأيام .. وأصبح أناس كثيرون فى ضباب يقرب أن يكون نسيانا .. راضى ... آه (وتبتسم كما يبتسم النائمون) ! آه .. لكأنه إحدى العرائس والدمى التى كنت أحلم بها فى الزمان الخالى .. نادية . لقد انقطعت علاقتى بها بعد تخرجنا بعام واحد ..

وطنطا .. لقد كانت عقيمة الأيام سقيمة الساعات .. ولكن لماذا ؟ لولا الاضطهاد والعنف الذى لقيته من بعضهن ماصارت إلى هذا المصير ! نجاح .. ترى هل ما تزال حتى الآن تجمع إعلانات الأدوية ؟ وأنت يا عفيفة ترى كيف أنت ؟؟ ..

منصور : الشاب الوسيم .. الطويل الممشوق أنبغ تلاميذ الأستاذ رضوان وأعزهم عليه . الملحن الناجح .. يبدو لها الليلة أنه سيكون له معها قصة . وكيف هذا ؟ إنها لا تدرى .. سوى أن الكون كله يؤكد هذا الخاطر . وكل شيء يومئ بالإيجاب ، حتى الكلب العظيم الباسط ذراعيه عند الباب تبرق عيناه بالأحلام تحت النور الذى ينصب عليهما .

والبلبل فى القفص المعلق فى الشرفة تراه الآن تحت ضوء الشعاع الخارج من الباب وهو ينظر فى كل جانب كأنه يحن إلى أليف ، وكأن الليل أحس سهره وقلقه فوكل به النسيم يهز قفصه ويهدهده إلى أن ينام .

وهكذا تراءت لها الأشياء . هكذا كانت تشغلها وتغريها وتحدثها أن التوحيد ليس له وجود بين قوانين الخليقة . فأحست كأن يدا تدق باب قلبها بعنف فسألت من الطارق ؟ .. فأجابها هامس خائف مستحى : إننى منصور .. كان يناجيها بعينيه منذ زمن بعيد ، منذ عام أو عامين أو أكثر ، فهى لا تستطيع أن تجزم . منذ هذه المدة وهى ترى كل يوم حرفا جديدا من كلمة « الحب » التى كان يبدئها ويعيدها مع الليالى والأيام ، وهى متغافلة لاهية . تثير الماضى فلا ترى فيه إلا جثثا فتعيد ردمه ، ثم

تواجه الحاضر فلا تلبث أن تفسده على نفسها بالمخاوف والكبر والتسويف . ثم فحصت أيام شبابها فألفتها تتواثب نحو المصير الذى يجرى إليه كل شباب . تتواثب أيامها وهى لا تزال تذود عنها القلوب وتدفعها ، وتتهم كل الشباب بأنهم من تجار الحب . حتى أصبح من الجائز جدا أن تذبل أزهار شبابها وتصوح دون أن تمتد إليها يد إنسان . إذن لم خلقت هذه الأزهار ؟

برز منصور من الضباب الكثيف الذى تتخبط فيه خواطرها ، وبرزت معه تلك الليلة القريبة ، ليلة كانوا عند الأستاذ رضوان الذى أصبح شيخا فانيا عجوزا ، ممددا على فراشه دائما . ليس فيه شىء حى إلا المخ واللسان . هذان هما وحدهما الباقيان ، وكل شىء فيه قد فنى .

كانت فى زيارته ليلتئذ وامتد بهما السمر فى ليل شتاء مظلم بارد حتى أحست درية فجأة أن قشعريرة تسرى فى بدنها . فتمالكت نفسها لكنها صارت إلى أسوأ فلم تجد بدا من أن تعلن هذا ، ثم كانت فى سيارتها بعد قليل ، وأصر منصور على أن يرافقها حتى البيت . وكانت المسافة غير قصيرة . بدأت السيارة تدرج لتقطعها مسرعة على أرض إحدى الضواحى التى غسلها المطر فانعكست فى أديمها أضواء المصابيح ، وكان هو إلى جوارها ينقل بصره مصعدا فيها مصوبا ، وهى منزوية فى الركن تكاد القشعريرة تطوى بدنها طيا . وجعل الموسيقى الصغير كل همه فى هذه الرحلة أن يحافظ على دثارها الصوفى الثقيل حتى لا ينحسر عن ساقيها

ولا قدميها ، وكانت حركاته فى ذلك الظلام الذى لا يبدده إلا أنوار المصابيح الخارجية حتى ترف على التوالى فى جوف السيارة رفا سريعا لا يعين العين على أن ترى شيئا — كانت حركاته تضىء بنفسها لأن فيها ضوءا وحرارة من الإخلاص والحرص على هذه المريضة التى بدت وكأن سنة من النوم انتزعتها من المتاعب فاستسلمت لها .

وتمر فترة سكون لا تسمع الآذان فيه إلا حفيف العجلات على أديم الطريق ، فيرى منصور نفسه وهو يهتف باسمها .. كان يناديها برفق وحنان نداء لا يقلق ولا يزعج بحيث لا تسمعه إلا إذا كانت يقظة . وتكرر النداء ولكنها لم تجب . فمد يده متحسسا أطراف دثارها حتى أمسك بأهدابه ورفعه إلى فمه ، وجعل يغمره بالقبلات مرة ويمرغ عليه خديه مرة أخرى . أما هى فقد كانت فى هذه اللحظة ترسل إليه من بين أهدابها نظرة لا تكاد تحس ، ولكن قلبها بدأ فى الخفقان .

ولم تكن الوعكة التى ألمت بها سحابة صيف تنقشع بعد قليل كما تمنى لها عند الباب وهو راجع أدراجه ، وإنما كانت مرضا ألزمها فراشها بضعة أيام .

وزخرت حجرة الاستقبال فى بيتها فى اليوم الثالث بكثير من السائلين لكنها كانت لا تأذن بالدخول عليها إلا للقليل النادر ، وكان منصور من القلائل الذين دلفوا إلى حجرتها ليطمئن عليها بالعين أو بالقلب .

استمهلت الخادم قليلا بعد أن أمرتها باستدعائه ، فتريثت عند الباب

حتى نزلت درية من فراشها ووقفت أمام المرآة لحظة لتسألها عما فعل بها المرض ، ثم استأنفت الخادم سيرها واستأنفت درية رقدتها فى الفراش .

كانت تحس على الرغم من كل شيء أن طلائع الحب فى طريقها إليها ، وأن فترة المقاومة التى طال أمدها قد كتب لها أن تنقضى . فأخذت تحرك شفتيها حركات هامسة خفيفة كأنها تناجى طيفا . أو تردد قولا تخشى أن تنساه ، واتصلت هذه الخلجات المرتعشة بقولها وهى ترد التحية لمنصور :

ــ مساء سعيد .. تفضل .

وجلس على كرسى وضع قريبا من فراشها تتعاور وجهه الناصع عدة ألوان فى اللحظة الأولى من اللقاء . وحاول ألا يتكلم حتى يتأكد أن أنفاسه المضطربة لا تقطع الحديث . كانت الفتنة مستلقية على ظهرها تغطى الدثر جسدها كله . بحيث لا يظهر إلا أعلى العنق .. تحت الذقن .. هذه المنطقة الصافية الناصعة التى كأنما صبها الله من بلور . وقد شب صفاءها حتى كاد يتوهج ثروة سوداء من شعرها الغزير حفت بهذا البياض كأنها إطار جميل . وكأنما أخطأت يد المرض التى مستها فمنحتها طاقة سحرية جديدة بذلك الشحوب الخفيف الذى يحبب المرض إلى الأصحاء من الأحباب .

ودخلت الخادم بالقهوة ورشف منصور من فنجانه رشفة خال أن صداها مرتفع جدا تردده الآفاق فى الخارج ، لأن الصمت من حولهم

عميق . فألهم من فوره أن هذه الخادم تصلح لأن تكون موضوع حديث يبدد به هذا الصمت :

ــ يعجبنى فى هذه المرأة الإخلاص يبدو على وجهها الساذج ..

فابتسمت درية وبدا التساؤل فى عينيها حين مالت إليه بوجهها بحيث أصبح خدها على الوسادة ، وتسايلت خصلات شعرها تتابعها فى الحركة ، ثم همست قائلة :

ــ والإخلاص فى الدنيا قليل ..

فأجابها وهو يضع الفنجان على منضدة قريبة :

ــ حكم سريع لا يخلو من القسوة ..

فأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى وتعمدت أن تحول الحديث إلى وجهة جديدة لأن أماراته بدأت تنم عن غاياته .

ــ أظن أننى تقدمت تقدما ملموسا . لكن فى نومى تخليطا كثيرا يفسده ويطيل على الليل .. ومن العجب أننى أحس الآلام وأنا نائمة أكثر مما أحسها فى حالة اليقظة ..

فبدا وجهه جامدا مصمتا كأنه لم يفهم ما تعنى . وتردد فى الشرفة فى هذه اللحظة تغريد هادئ من البلبل السجين ، فندت من المريضة أنه خفيف تفلت من الأفواه عادة حين يذكرنا شىء بشىء . ولم تلبث أن قالت بعدها :

ــ الأحلام يا أستاذ .. الأحلام مصدر تعب لى ..

ـــ كيف يا سيدتى ؟ .. إنك تبالغين .. ولمن طابت الحيـاة .. بلا أحلام ؟ ..

وأطرق إطراق من قهره لسانه فقال ما لا يرضيه . أما هى فإنها أخذت تسبل من أهدابها قليلا قليلا كأنما تريد أن تغمض عينيها على منظر فاتن ، ثم عادت فنظرت إليه وعلى ملامحها خيال ابتسامة :

ـــ ربما كان ذلك صحيحا . لكننى أريد أن أقول شيئا خاصا فاستمع إلى . (و لم تبدأ قصتها فورا كأنما كان يلذ لها أن ترى تعاقب الخواطر على وجهه الصريح) : لقد ذكرنى تغريد هذا البلبل شيئا كنت ناسيته . رأيت حلما عجيبا .. رأيت كأننى أنظر إلى هذا القفص فإذا بابه ينفتح وإذا البلبل يطير مغردا مرفوعا فى الفضاء تحت أشعة القمر فى مساء دافئ هادئ . وأحسست ساعتئذ كأننى مكتوفة أو مذهولة أو غير قادرة على أن أفعل شيئا . اللهم إلا النظر ، فلقد ظللت واقفة حيث كنت واقفة أنظر إلى خياله حتى غاب عنى ، وحتى لم أعد أرى إلا زرقة السماء ، ونجومها المنثورة .

رأيت هذا فى منامى منذ ليلة أو ليلتين لست أذكر تماما ثم نسيت .. ثم ذكرت . وقالت فى جزع وقد اتسعت عيناها :

ـــ منصور .. ما تأويل هذا ؟ إننى خائفة .

فقال وهو يبتسم :

ـــ خير كثير .

فانتفضت جالسة فى فراشها :

ــ أتعنى ما تقول ؟

ــ بلا شك .

ــ زدنى إيضاحا إن كنت حريصا على ألا ينغصنى شىء .

ــ فيها قولان كما كانوا يقولون ..

ــ أحدهما خير و ..

ــ ثانيهما خير كذلك (فسرى عنها وبدت كأنها جارحة تنصت) ..

ــ الصوت . صيت . والتغريد .. غناء . والطيران .. رفعة . تستطيعين أن تفهمى من ذلك يا سيدتى أن شهرتك الفنية سيسمعها سكان القمر .

ــ آه .. شكرا .. شد ما كنت خائفة .. فقد بلبل فى الأحلام شىء مزعج ، حسن جدا ، وما الخير الثانى ؟

فابتلع ريقه ونظر إليها متعمدا أن يظهر فى عينيه المخاوف ، ثم جعل يفرك كفا بأخرى ويقلب ناظريه فى كل ما حوله ثم قال :

ــ أرجو قبل كل شىء أن تعتبرى ما سأقوله الآن ضربا من التخمين قد أكون فيه مخطئا ..

ــ وقد تكون مصيبا .. هيه ..

ــ غير أن الخطأ فى مثل هذه الأحوال أكثر وأغلب . وإن كان العلم

الحديث يرجع الأحلام ..

ـــ دعنا من العلم الحديث يا أستاذ . لا تضايقنى فإن فى عينيك ما ينذر بأن فى قولك شيئا غير محبوب .

ـــ لا قدر الله . ألست تشاركيننى الرأى فى ضرورة معرفة طرف مما قاله العلم عن الحلم ؟ ..

فقالت فى تظرف ساخر :

ـــ لعلهم بدأوا يلحنون الأحلام ..

ـــ إذن فاستمعى : يخيل إلى يا سيدتى أن فى طبعك معنى عجيبا . كأنك فيما يبدو تضيعين كثيرا من الفرص عامدة . وبلا مبالاة . أقصد أن أقول : ربما وقع ذلك فى الماضى .. (ثم اتجه بكل مشاعره وأخذ يضغط حروف كلماته) . وربما يكون فى الحاضر .. وقد يكون فى المستقبل ! علم هذا عند الله .

ثم انتفض قائما من مكانه متظاهرا بأنه أزهد الناس فى سماع الرد ، فمدت إليه يدها مسلمة ، ولكنها لم تدعه يسترد كفه منها بسرعة ..

كانت تركض فى تيه من الذكرى وتجوس خلال الماضى كأنها مخمورة ، أما نظراتها فى هذه اللحظة فقد كانت مشحونة بلين وأنوثة لم تفض بهما عيناها من قبل .

كأنما كانت تريد أن تقول للرجل الذى لا يزال ينظر إليها : أنا التى أخلق الفرص .. هذه عينة من رصيد كبير أدخره حتى الساعة التى

أشاؤها . وعندئذ أقدمه لأى رجل أحببته . ولكن . ترى من يكون ؟

« تلك هى الخواطر التى كانت تتهافت متزاحمة على رأسها ساعة جلست إلى المعزف فى سكون الليل ، فأومأ لها الوجود يؤكد أنه سيكون لها مع منصور قصة » .

٧

استمع إلى يا سعيد :

كان ذلك فى ليلة عبقرية عجيبة وكنت إذ ذاك فى أحد منارات البحر الأحمر التى تعلم أنها منعزلة عن الأرض قائمة بين الماء تحت السماء كأنها قطعة من عالم مجهول .

وكان الوقت صيفا والسماء صافية الأديم تخدعك حتى تخال أن عينيك قادرتان على أن تستشفا ما وراءها . والبحر .. كان ساجيا هادئ اللجة يوسوس هامسا بين حين وحين ثم يغضى كأنه حلم . وكنت حينذاك فى البرج أنظر الدنيا التى ألفناها منذ سنين وأراقب الشعاع الطويل المتذبذب المتراقص الذى يرسله المنار ، وأنا مشغول الخاطر بأشياء لا أستطيع أن أعرف أيها يحتل من تفكيرى المكان الأول ..

فهناك زميل عزيز فجأه المرض عصر ذلك اليوم عقيب أكله سمك طازج بالطبع ، أحس بعدها بألم فى الجهة اليمنى من بطنه تحت الأضلاع ،

ثم بقىء وانطلاق جعلنا لا نشك فى احتياجه إلى عملية جراحية سريعة وإلا .. فإن الله وحده هو الذى يعلم ماذا سيكون مصير شبابه بعد ساعات ..

وهناك مذياع مفتوح .. هل تعجبك هذه التناقضات يا صديقى ؟ كان هناك مذياع مفتوح لأن زميلنا كان يصرخ فينا كلما هادنه الألم صائحا أن افتحوا المذياع .. آه .. لا تجعلونى أحس أننى دخلت القبور .. ما لكم صامتين هكذا والبحر صامت ؟! ما هذا السكون الموحش ؟ .. آه .. صلونا بالدنيا .. افتحوا المذياع .

وكنت لا أفتر عن الصعود والنزول من المنار وإلى المنار . ألقى على الزميل نظرة ثم أعود لأشغل بهمى الثالث الذى كانت فحواه أن أتصل باللاسلكى مخاطبا من يسمعنى . ومراقبا حدوث معجزة على الأفق المائى المتأرجح الرجراج . وأنت تفهم بالطبع أن المعجزة هنا مرادفة لاسم « الباخرة » أيا كان نوعها وراكبوها ولو كانوا من الشياطين . وفى ذلك الجو الغريب الثائر الذى ألفت فيه المقادير بين أنغام الموسيقا ولغط البحر وغناء مغنية وصراخ مريض وصوت مستغيث باللاسلكى يرفع عقيرته طالبا النجدة — أعلن المذياع اسم المغنية التى سحرتنا بصوتها ...

وأمسك راضى عن الحديث برهة ليحمل صديقه على أن يسأل : ومن عسى أن تكون هذه المغنية ؟ .

وفرغ سعيد من بقية الترمس التى كانت باقية أمامه على المنضدة بعد

أن تجرع ثمالة كأسه ثم اتجه إلى صديقه يسأله بهزة من رأسه : من عسى أن تكون ؟ فقال له وهو مائل عليه ليهمس بالنبأ العظيم : إنها هى .. هى بعينيها .. هى التى حدثتك عنها قديما .. هى التى أجلتنى عن الأرض وأسكنتنى لجة الماء .. هى .. هل عرفتها الآن ؟ فأجابه مقهقها : يا سخرية الأقدار .. اسمع يا أخى .. إنها ومثيلاتها جميعا يقطعن صلتهن بالماضى ويحرصن على ألا يرين من أشباحه شبحا واحدا . ولو قدر لأحد هذه الأشباح أن يظهر على مسرح حياتهن .. فالويل له . فقال وهو يلتقط أنفاسه بعسرة : ماذا تعنى ؟ . فأجابه : الذى أعنيه تماما هو الذى تفهمه أنت الآن : إنهن يدسن على قلوب كثيرة يخترن وينفين كما يحلو لهن . وليس لأحد من الناس أن يسألهن ما السبب . لا تدعنى أنسى أن أسألك عن مصير زميلك المريض وهل كتبت له النجدة ؟ فأجابه راضى بأن قال له :

ـــ إنه وصف طويل .. خبرنى أنت أولا عن الصحيفة اليومية التى وفقت للعمل بها .. وأحب قبل أن أنسى أن أزف إليك بشرى قرب عودتى إلى الأرض مرة أخرى .. إن جاذبيتها شديدة يا سعيد . فسأله : عن جاذبية من تتحدث ؟ فأجاب مبتسما : عن جاذبية الأرض بالطبع . وسأنقل إلى عمل أشد سحرا وفتنة من عملى الأول . لقد نسيت الماضى تماما وسأفكر فى الزواج

* * *

لم يقدر لدرية ومنصور أن يلتقيا بعد الحديث الذى دار بينهما إلا فى

هذه الليلة لكن خواطرهما كانت ملتقية على البعد طوال المدة التى لم يتراءيا فيها ، لأنه تركها مبلبلة الخاطر نشيطة الهموم تفكر فى « الفرص » تفكيرا حقيقيا بعد أن بدأ عمرها يخطو إلى الثلاثين . ثم ذهب الليلة إلى بيتها ليفضى إليها بأنه فرغ من وضع ألحان أغنيتها الجديدة . وفتحت له الخادم باب غرفة الاستقبال بعد نقرة خفيفة على الباب فهم منها أن زائرا فى الداخل ، ولم يكن يقدر وهو يخطو خطواته الأولى أن سيرى شخصا يحمله على التفكير أو يستأثر بانتباهه وخواطره .

وألقى منصور عليها تحية متوددة مؤدبة ردت عليها درية ردا مختصرا لا تقبله النفس بسهولة لولا ابتسامة كانت على شفتها ساعة الرد . وأغلب الظن أنها كانت مستعارة من الحديث المتبادل بينها وبين الزائر أعنى أنها لم تولد من أجل هذه التحية . وأما الجالس فإنه لم يكترث بالداخل ولم يكلف نفسه عناء فى السلام ولا فى تغيير جلسته . لأنه كان يعرف قدر نفسه تماما فلا ينبغى أن يغمطها حقها . وجلس منصور على أقرب كرسى أحس به ، وجعل ينصت إلى الحديث الذى أخذ صبغة عدها غريبة غير مألوفة . وكانت أولى الكلمات أن سمع درية تقول :

ـــ هو كما قلت تماما يا كمال بك . فأجابها مبتسما فى زهو شديد والسلسلة الذهبية لا تزال فى يمينه يديرها حول سبابته فتلتف ثم يحلها فتنحل .

ـــ لقد ظننت أنك ستخالفيننى فى الرأى . وعجيب أن تلتقى آراؤنا فى

مثل هذا الموضوع بسهولة .

ثم استحالت الابتسامة المتألقة على فمه الطرى الغض إلى ضحكة ناعمة لا يضحكها الرجل ولا تعجب بها المرأة ، أعنى ضحكة فقدت الرجولة و لم تستوف شرائط الأنوثة . فأحس منصور أن حينا من الدهر طويلا قد تقضى وهم جالسون ثم جعل يسائل نفسه :

إذا كان بينهما سر فما الذى حملها على أن تأذن لى بالدخول ؟ ولكن لعلها أذنت وهى شاردة اللب أو مشغولة الخاطر . ثم .. هل فى آداب الناس أن يتكلم اثنان فيومئ كل منهما بما يريده وبينهما ثالث غريب يخمن ما يقولان وهو متألم ؟ ..

وتنحنح يريد أن يشعرهما بأنه موجود . وكأنما آتت هذه الحركة ثمرتها المرجوة . فالتفتت إليه ثم استرجعت نظرتها وقال للجالس الأول : أنسيتنى يا كمال بك أن أقدم إليك الأستاذ منصور .. الموسيقى الملحن . فأجابها وكأنه متردد : تشرفنا . واستطردت هى تتحدث وعيناها تفيضان بالتعظيم والتحذير : والأستاذ كمال بك نجل حسن بك الجواهرجى المعروف . فقال غير محول عينيه عن عينيها : لنا الشرف العظيم .. (وحنى رأسه قليلا وهو جالس) . أما كمال بك فقد ظل كما كان غارقا فى الكرسى متطلعا إلى أعلى فى ترفع واستكبار ويده تعبث بالسلسلة لفا ونقضا حول السبابة اليمنى . ومضت برهة غير طويلة نظر بعدها إلى منصور من جانب عينيه ثم نظر بعدذلك إلى ساعته وقال :

أعتقد أن الوقت قد حان للاستئذان . ونهض فنهضت تودعه . وألفى الموسيقى أن الضرورة تحتم عليه أن ينهض فقام فى شيء من التثاقل ، وأخذ كمال بك الشاب الوسيم الذى خلع عليه المال كل ألقاب الشرف يمشى الهوينا على سجادة « الصالون » حتى قطع المسافة بين مقعده ومقعد درية غير مستعين إلا بالله ، وحتى قرب كثيرا من مكان منصور . ولما فرغ من تحية المضيفة استدار يحيى ضيفها الثانى لكنه توقف قليلا وألقى على وجهه نظرة ضيق معها عينيه كأنما يفحص شيئا ، أو كأن الشمس تواجهه ثم قال فى نبرات تحرسها كبرياؤه : كأنى أعرف هذا الوجه ، ويخيل إلى أننى رأيته قبل ذلك . ولم يسكت حتى يعطيه فرصة يرد فيها بل استدار فى وقفته فأولاه ظهره وأكمل كلامه وهو يواجه درية : متأسف . لأننى نسيت ما قلته يا آنسة . حين ذكرت أن الأستاذ ممثل .. لأننى رأيته مرة على خشبة مسرح .. مسرح .. متنقل . فى أحد الأقاليم . ثم سار نحو الباب فى بطء شديد يجر وراءه أذيال « رصيده » وسارت درية خلفه بضع خطوات حيث ودعته عند الممشى ثم عادت فإذا بالموسيقى لا يزال واقفا حيث كان وعلى الهيئة التى تركته عليها ساعة كان كمال بك يخاطبه . كان مذهولا من الهجوم الخاطف الذى لم يسبقه إنذار ولم يكن له مسوغ . ورأته هى على هذه الحال فشحب وجهها وجلست ثم رجته بعينيها أن يهدأ قليلا وأن يجلس . وفعل ، ثم بدأ يقول بصوت هدجته الثورة :

— تظنين يا سيدتى أن من حق أى إنسان عزيز عليك أن يجرح كرامة الناس ما دام متحصنا بأننا نحترم الذين تحترمينهم ؟

فأجابت وهى تنظر إلى فص خاتم ثمين يدل وميضه فى كل ناحية على جدته وغلائه :

— إن سبب وجوده هو أنه جاء يحمل إلى هذا الخاتم .

فابتسم ابتسامة ذات مدلول .

— هذا حسن .. وما دمت قد تكرمت وعرفتنى فضله فأرجو أن تتكرمى مرة أخرى وتعرفينى ذنبى .

وبدأت العاصفة تهب على وجهها هبوبا لا يخفى على عين .. بدأ وجهها الخمرى المستطيل يلبس أقنعه مختلفة متوالية متعاقبة : منها القانى ومنها الشاحب ومنها الأبيض الثلجى ومنها الأغبر المربد . أما عيناها فقد استحالتا إلى نرجستين واسعتين فيهما جمود واستدارة . ثم تكلمت فغابت درية وحلت مكانها فتاة جديدة :

— ماذا تريد أن تقول يا أستاذ .. لقد خلقتنى المقادير وتخرجت فى بيت موسيقى كبير شريف تعرف الدنيا كلها سمعته . إن الكفوف التى حملتنى إلى مركبة الفن كلها نظيفة .. وقد دخلت دنيا الغناء من باب ليس فيه غموض ولا خفاء ولا ريبة . ثم إن الموقف بينى وبين هذا الشاب لا يزيد على أننى شارية وهو بائع . وإذا كان هناك فضل فهو أنه حمل الخاتم إلى وأنا فى بيتى .. و ..

فقاطعها فى هدوء واعتزاز :

ــ ليس من حقى أن أتدخل فى صميم حياتك يا آنسة . ولكن من حقى أن أتدخل فى صميم حياتى .. وقد اعتدى على هذا الإنسان .

ــ كان بودى أن أتدخل لكننى خشيت أن ألقى على النار حطبا .

ــ إن اعتداء رجل على رجل أكرم للنفس من دفاع سيدة عن المعتدى عليه !! فزمت شفتيها وهزت رأسها ثم قلبت وجهها فى السماء التى بدت رقعتها من إحدى النوافذ ثم قالت له بلهجة فيها هدوء كثير :

ــ أستأذنك لبضع دقائق .

وتركته إلى مكان آخر كأنما أرادت أن تقيم سدا من الوقت بين خاطرهما وبين الذى حدث ، عسى أن ينجح هذا الحاجز فى تحويل دفة الحديث بينهما .

أما هو فقد جعل بعد خروجها يقطع الغرفة فى خطا متقاربة وئيدة ويداه معقودتان خلف ظهره وخياله يستعيد الحوادث التى وقعت له مع هذه الفتاة . ثم استأنفا الحوار مرة أخرى .

ــ إنك شديدالحساسية ياأستاذ منصور ..

ــ ومتى كانت البلادة معدودة فى مزايا الرجال ؟!

ــ ما عنيت هذا وإنما عنيت شيئا آخر .

فقال فى تهكم خفيف :

ــ لعلك تعنين يا سيدتى أنه من الواجب أن نقبل أكف الذين يعتدون

علينا ، وأن نتعلق بأذيالهم وهم خارجون .. فنظرت إلى الأرض وهى غارقة فى الكرسى وولدت على ثغرها ابتسامة خفيفة ثم قالت :

ــ مطلقا مطلقا .. لا داعى لتقبيل الأكف ولا التعلق بالأذيال .. ولا .. ولا .. التمسك بالأهداب وتمريغ الخدود عليها ..

ثم ومضت عيناها بنظرة واحدة استرجعتها سريعا وعادت إلى إطراقها تنظر إلى ظهر يديها وتنقر بإحدى قدميها على أرض الغرفة . وتركته هو متعلق الأنفاس ساكن الملامح متذبذبا بين الشك واليقين . ولم يكن فى فترة الصمت هذه صوت يسمع إلا غناء لبعض الملاحين من أهل الجنوب فى مركب شراعى يحمل العسل مارا بالنيل . وكأنما كان البلبل الذى يرقص نسيم الربيع قفصه فى الشرفة يراسل هؤلاء القوم فيما يغنون .

وتنهد منصور واتجه إليها قائلا :

ــ لكل شىء موسم ..

ــ ...

لم تجب ، ولكنها أسندت رأسها إلى ظهر المقعد ، وقالت له بعينها :

ــ إلا الحب ..

ــ نحن فى الربيع .. وتقبيل الأهداب لا يكون إلا شتاء .

فلم تغير جلستها ولم تفعل شيئا . كلا ولم تقل ، سوى أنها أغمضت عينيها برهة من الزمن كأنها تفتش عن الجواب فى عالم بعيد ، ثم نظرت من جديد وكانت مكسورة النظرة مرتعشة الشفة خافتة الصوت :

ـــ منصور ..

ـــ ....

ـــ أحس كأن قشعريرة تريد أن تطويني .. هل نحن .. فى الشتاء ؟

وتستطيع أنت أن تتصور الباقى حتى لا أكون ثرثارا . لأن منصور رأى أن الواجب يقتضيه أن يدفئها .. بقبلة .

لكن شيئا خارجا عن هذا النطاق لم يخطر على بالهما ولا يخطر على بالك . لقد نسيت درية أنها طلبت فنجانين من القهوة للمرة الثانية ، وقد حملتهما الخادم الطيبة إلى غرفة الاستقبال المفتوحة الباب ، ثم تراجعت وتوارت منتظرة حتى ينقشع الموقف . لكنها ما كادت تخطو من جديد إليهما حتى فوجئت بأن الشراب عاد لا يصلح لأن يقدم . كان القدحان قد فاضا بنصف ما فيهما من رعشة يديها ، ثم فاضت الأطباق حتى أتلفت المفرش الأبيض !!

وجعلا يتمليان الحياة حلوة متجددة شهية فى الوقت الذى كان راضى يبذل فيه كل ما يطيق لينقل إلى مصلحة سكة الحديد مرة أخرى ، لأنه قضى فيها شطرا من شبابه فى أول حياته العملية . وودع البحر وداعا جافا ليس فيه دموع . ثم تلقفته الأرض وجعل إقليم يرمى به إلى إقليم حتى استقر فى إحدى محطات الصعيد فى وظيفة « معاون » ينعم بالهدوء فى الأرض ، كما كان ينعم بالهدوء فى الماء .

وكان دائب التفكير فى الزواج لكنه كان كمن ينشد شيئا ليس له

وجود على البسيطة ، وتأكد بينه وبين نفسه أن الزمان فرق بينه وبين درية ، وأنه لا سبيل إلى أن يجمعهما رباط من أى نوع كان ، لأن مركبة الحظ قطعت بها شوطا طويلا من طريق السعادة ، وهو هو الموظف المغمور الذى تستهلك الدولة زهرة عمره بجنيهات لا تقنع الشباب ولا تكرم الشيخوخة !! كان كأنه مصاب بالدوار فسلم للأقدار سفينته الضعيفة لترسيها على أى أرض تشاء .

على أنك قد تسائل نفسك عن قلب راضى وكيف أنه صبر على الحرمان بعد الطعام المبكر الذى كانت تبذله له حبيبته التى هجرته . وحقيقة الموقف هى أنه مشى فى الدنيا بفؤاد ساخط موتور ، فاصطفى من الحب لونا رديئا رخيصا من ذلك الذى تجود به طائفة من النساء لبضع ساعات ، أو لبضعة شهور أو أسابيع . أما الطريق الحلو والسهر اللذيذ والدمعة والزفرة ، فإنها جميعا لم تعرض له بعد ذلك ، أو لعله هو الذى كان يسد فى وجهها الطريق دون أن يشعر .

ودرية .. أتراها تذكره ؟ .. لم يكن يعرض لها إلا قليلا نادرا وبخاصة بعد أن صخبت حولها الحياة . على أن حبها لمنصور لم يكن إلا امتدادا لحبها الأول .. كانت كالتى غيرت لون ثوبها بالصباغة فأنستها الأيام لونه الأصلى ، ثم خالت أنها ترتدى ثوبا جديدا . كان راضى ضعيف الشخصية ، فلم يستطع أن يحتفظ بها بين يديه ، ثم أخطأ حين أقام من البعد والأيام سدا بينهما فقسا قلبها أو نسيه على أقل تقدير . أما منصور

فقد كان نهازا للفرص ، رجل صارم الرجولة لا يحزن إذا أكلت طعمه السمكة . ولعل هذا النوع من الرجال هو النوع الوحيد الذى يكتب له النجاح ، مع المغرورات والمتكبرات منهن .. ويخيل إلى أن راضى ذلك المتهافت البائس .. لو أنه كتب إليها فى طنطا أو ترك لها خطابا مع خادمة مدرسة البنات لتوصله إليها إن سنحت لها فرصة ـــ يخيل إلى أنه لو كان فعل هذا لتغير وجه حياتها وحياته . لكنها المقادير تلهب ظهرنا بسياط لا نراها وتسوقنا إلى حيث نشقى ، أو إلى حيث نسعد .

وودع راضى البحر كما قلت لك وداعا جافا ليس فيه دموع . ثم هبط إلى القاهرة فحيا أخاه وأسرته . وعرج على سعيد ليراه . وكان فى طريقه يحدث نفسه : لعل حياتى وحياة هذا الشاعر مربوطتان بكوكب نحس واحد .. إنه رجل مسكين لا تريد الحياة أن تخفف من جموحها معه . وابتسم يرثى لصديقه حين تصوره فارسا قصيرا أبيض غير وسيم يركب حصانا جامحا منذ عشر سنوات . يروضه ويسوسه فلا يرتاض ولا يساس ولكن . أين المفر ؟

كان الوقت ليلا وكان الفصل خريفا . والقاهرة إذ ذاك كأنها تمددت فى فراشها باكرة . ودار راضى حول حديقة الأزبكية وهو فى طريقه إلى سعيد فجعل يتأمل الأشجار العظيمة الطويلة ونصفها غارق فى النور ونصفها فى الظلام ، فيرى الخريف وقد عراها من الورق ، فيسرى فى نفسه شىء من التشاؤم ، ثم دلف أخيرا إلى شارع ضيق ، أبرز ضيقه

للعينين واضحا هائلا مبالغا فيه أن البيوت التى تقوم على جانبيه معظمها مرتفع عال فبدا الشارع كأنه شق بينهما بعد أن بنيت شقا . وتفوح فيه رائحة يكاد يتميز بها وحده أو لا يكاد يشاركه فيها إلا القليل من الشوارع ... رائحة تستطيع أن تتصورها حين تستعرض فى ذهنك صورة حوانيت البدالين من الإغريق أو الأرمن الذين يغلب عليهم الصلع وعظم البطن والذين تفوح من متاجرهم رائحة الجبن والزيتون والنبيذ . وفى هذا الشارع كان يجلس سعيد فى حانة منعزلة صغيرة يخدم فيها صاحبها بنفسه ، قد تجانست مع الشارع فى مساحتها المحدودة ونورها الخافت الهادئ الذى يساعد الأشباح على أن تظهر للمخمورين .

وتعانق الصديقان فى وداد وشوق . كان راضى رث النفس أما سعيد فكان رث الهيئة . وكانت الفاقة بادية عليه بشكل لم يسبق أن تراءى فيه ، وجعل يسرد خلاصة قصته لصديقه فيقول : إنه بلا عمل منذ خمسة أشهر وكان آخر عهده بالجريدة الصباحية يوم أن شتم رئيس تحريرها ذات مساء لأنه رجل تافه .. تافه جدا . كأنه لم يكفه أن إدارة الصحيفة لا تعطيه إلا ما يحفظ عليه الرمق حتى يستدعيه هذا الرئيس أمام زائريه ليظهر الرياسة أولا ثم ليتهكم عليه ثانية ؟

وطفح الكيل وفاضت الكأس حين زين له أن يسطو على كرامة سعيد أمام بعض الزائرات . فلم يجد بدا من أن يدوس خبزا غير طرى ولا نظيف ما دام يخطو نحو الكرامة ، ولقنه درسا فى الآداب العامة قلما

ـــ هل أعجبتك هذه القطعة ؟؟

ـــ رائعة .. جميلة .. لم تقل آهل منها .. إنها حزمة من المشاعر كل بيت من أبياتها ينبض بالحياة يا سعيد . ولكن ..

ـــ لا تستدرك على شيئا فإننى غنى فى استدراكك . سأقول لك : إنها قصتها معك .. لا تقطب هكذا . بل إنها قصتك معها . ما بالك لا يعجبك قولى يا أخى .. إذن فإنها قصة كل منكما مع صاحبه . أوه يا راضى ، ما أظن أن إطراقك سيؤلمنى . نحن نسجل اللحظات والأنفاس بالبارع من أقوالنا . أتذكر حادثة مرضها تلك التى قصصتها على يوم كنت قلبا خالصا ينبض على مقربة منها ولا تراك ؟ ليلة جثمت فى الظلام ترسل لها النور والدفء والدعاء من وراء النافذة ، وهى لا تدرى ؟! لقد تخيلت أنا أن قلبها فى هذه الليلة نبض حين أحس نجوى قلبك ، وأنها تقلبت فى فراشها وناجت نفسهاقائلة : آه .. ما لى أحس كأن رائحة حب تفوح فى جو المكان ؟! .

أظن أن هذا سيعجبها يا صديقى . فانتفض راضى كأنه ملسوع :

ـــ يعجب من يا سعيد ؟ .

ـــ يعجب الآنسة درية .

ـــ هل أنت سكران ؟ ..

ـــ السكران أنت .. وإن لم تشرب . إننا دائما فى نشوة من خيالنا أيها الواقعى الجامد .. نحن فى رياض من زرع أيدينا ، وإن شئنا سبحنا

ينساه . وخيل إلى الشاعر أن بعض السيدات كن ينظرن إليه فى إعجاب لا يخفى ، على حين كان الرئيس مذهولا من مفاجأة غير متوقعة فأمسى فى موقف لا يأخذ فيه ولا يدع . وكان الشطر الأخير من الموقعة هو أن خرج سعيد من هذه الجريدة الملعونة فى ثورة وصخب ، وصفق وراءه الباب صفقة أزعجت كثيرا من الموظفين فى الحجرات الأخرى . وذلك هو آخر عهده بتلك الصحيفة .

ثم مال إليه يقول مخافتا بصوته : على أن المحنة يا صديقى لن تطول أكثر من هذا ، فإن سعر القطن قد تحسن ، وذلك كفيل بأن يجعل السيد المستأجر يبر بوعده فيبيع ويدفع لنا حتى قدرا من المتأجر عليه . عندئذ أستطيع أن أبحث عن الأعمال بحث غير المضطرين ، والذى أدعو الله من أجله هو ألا يؤخرنى إلى محصول آخر . هل تتصور يا راضى أننى من أناس تتقاذفهم المحاصيل تقاذف المصائب ؟ . يرمى بى واحد إلى واحد كأننى فى حظيرة الشياطين .

وصمت قليلا حتى فرغ من بقية كانت فى قرارة كأسه . ثم أخذ نفسا طويلا قال بعده لصديقه : هيه .. طبعا أنت مسافر غدا ! ولكن هل لك فى قليل من الشعر ؟ . عندى عينات جديدة فيها جمال وفيها قشابة .. هل تسمع يا راضى ... ؟ .. ما أحوجنا يا صديقى إلى هذه الواحة ونحن فى صحراء الشقاء !! ولم يتمهل حتى يعرف رأى محدثه ولكنه بدأ ينشد ...

فى بحيرات النبيذ .

ــ هذا شىء آخر .. حسبتك تتكلم عن حقيقة .

ــ على كل حال قد أرسلتها إليها بالبريد ، ومعها خطاب يشرح الحال .

ــ عدت للهذيان ؟ ..

ــ ربما تغنت حبيبة « خوفو » ..

ــ بأشعار « بنتاءور » .

ــ لا نستطيع أن ننسى حبيب الطفولة ، فما بالك بأحباب عهد الشباب ؟ ..

ــ أنت خصب العواطف .

ــ مجدب الجيب .

ــ ذكاء المرء محسوب عليه .

ــ اللهم اعكس .. يسر لقلبى يا رب جدبا يسرته لبطنى وهيئ لبطنى خصوبة هيأتها للقلب حتى أكون كعامة المجتمع الذى أحيا فيه .. أستغفر الله .. رب اعكس مرة أخرى إن كنت استجبت فإننى إنسان .

ولم ينس سعيد وهو عائد إلى البيت أن يتلفت وهو على ناصية الحارة قبل أن يدخل من الباب .. كان يفتش فى الظلام عن أحد الكلاب الضالة التى تتمسح به كل ليلة والتى كأنها تناقلت عطفه وحنانه فجعل واحد منها يرابط على مقربة من بيته لينال من يديه طعام العشاء ، ولم يمض وقت

طويل حتى كان شبح أسود يعدو إليه من أجل الرغيف ، فوقف الشاعر على مقربة من أحد الجدران حيث أخرج رغيفا مما كان يستصحبه ثم مزقه وقدمه . وخيل إليه كأنه يبتسم ويدعو . وكان يسمع صوت ازدراده اللقمة حتى بعد أن دخل البيت فجعل يقول وهو يتحسس بقدمه درجات السلم فى الظلام الدامس : قاتل الله الجوع .. لندعه يأكل ، فإن له معدة .. لماذا نجيعها ؟ .. هل كانت تجيعنا لو أنها هى التى تحكمت فينا ؟ .

* * *

من المفروض أن قطار المساء يصل إلى المحطة التى يقصدها سعيد فى الساعة الرابعة تماما لو أن الأمور تمشى دائما على ما يرام فى خط « المناشى » الصحراوى ، وبخاصة فى فصل الشتاء . وما كان سعيد قبل ذلك يعنى نفسه بالسفر إلى هذه البقعة لأن المستأجر كان يتفضل ويرسل إليهم بعض الحق بحوالة بريدية أو يحدث أن تسافر أم سعيد فتتولى بنفسها هذه المهمة . ولعله كان لضعف الأنوثة دخل فى الموضوع حين كان السيد المستأجر يعطف عليها كلما سافرت فيزودها بشىء من المال .

لكن الأمور فى هذه المرة قضت بأن يسافر سعيد بنفسه . فالأم مريضة .. بدأت الشيخوخة تعلن عليها حربا قلما تضع أوزارها إلا بالموت ، والبرد قارس ، والابن متعطل ولو أن كسبه لم يكن من النوع الثابت أو الواسع الذى يكفل للبيت الضمان .

كانت الريح تحمل إليه رمال الصحراء فى كرم وأريحية ، وهو جالس فى إحدى عربات الدرجة الثالثة من قطار المساء يذكر أيامه الخوالى ويدعو لأبيه بالرحمة ، ويستجدى له المغفرة لأنه زل زلة كبرى يوم اشترى هذه العزبة فى تلك البقعة من مركز كوم حمادة ، ثم يكد ذاكرته حتى يستعيد معالمها وموقعها وحديقتها ومبانيها والطرق المؤدية إليها . إنه يزورها هو وأبوه وأمه فى المناسبات وبخاصة فى إجازة الصيف حين يرتاح الموظفون فيفرون من القاهرة إلى الشواطئ أو الخلاء . ولا يعرف كيف اشتراها أبوه إلا أن أمه تقول : إنهما تعاونا على ادخار ثمنها . وعاش سعيد محمود المئونة لا يكلف شيئا ولا يجبر على عمل حتى ولو كان واجبا مدرسيا ، فنشأ هكذا يهاب المسئوليات . ولذلك فإن قلبه يدق عنيفا كلما ذكر وهو فى القطار أنه سيقابل إنسانا ما ويطالبه بمال ، وقد مات أبوه وهو فى السادسة من عمره وخلفه واحدا ليس له أخ ولا أخت فحملت أمه أمر تدبير شئونه وأفاضت عليه حنانا عزيزا هى وخادمته أمينة التى تكبر أمه ببضع سنوات . وحدث مرة أنه سأل أمه عن أقاربهم وأصهارهم فعرف أنه انحدر من أبوين تركيين رحلا مع جديه من أبيه وأمه إلى مصر . ثم .. ثم انقطع حبل النسب .. على أن هذا لا يعنيه بقدر ما يعنيه أنه سيقابل رجلا لا يعرفه .. كل معلوماته عنه أنه يدعى أبو الغيط . فمط شفته ، وهز كتفه وقال فى نفسه : وما أبو الغيط ؟ . يا بئسما خلف !!

لكن ذلك ضرورى .. ضرورى أن ألقاه !!

وأخذت الريح تهب صحراوية غربية تحمل معها رمالا كثيرة وبدأ القطار يخفف من سرعته ويرسل الصفير إثر الصفير ، حتى توقف عن الحركة تماما وتساءل الركاب ماذا هناك ؟ فقيل : إن هذا الخط المفرد زحفت عليه جحافل الرمال فردمته وقد جردت المصلحة ثلة من العمال يطهرون الطريق من آثار الغزو ، لكن ذلك يعنى أن القطار سيتأخر مدة عن ميعاد الوصول لا تزيد على ساعتين . نعم .. لا تزيد .. وقد حدث ووصل قطار الساعة الرابعة فى السادسة مساء وشهد سعيد فلول النهار السقيم وهى تتراكض بين كثبان الصحراء لتغيب فى كل فج ولتخلى الطريق لسوابق الظلام الذى كان يعلم أنه فى غير مصلحته ، لأنه لا يذكر طريقه نحو العزبة إلا توهما ، ولأن الغيوم ابتدأت تتزاحم كأن بعضها يدعو بعضها الآخر حتى لبست الطبيعة عدة الحرب . وقد كان هذا المنظر كفيلا بأن يجعل سعيدا يصفق فرحا ونشوة لو لم يكن عابر سبيل .

لم يكن يعرف الكثير عن طبيعة الريف ولذلك ركبه الذعر حين رأى ليل الشتاء هناك ساعة داست قدماه أرض المحطة المقصودة . فرأى الأفق دائرة كاملة لا يقطعها بناء ، وبدت الدنيا كهفا مظلما لا يخفق فى جوفه شعاع واحد وسمع أزيز الريح فى أسلاك التليفون وبعض شجيرات متجاورات من أشجار « الجزورينا » تجمعت على مقربة من المحطة فبدت أشباحها أشد سوادا من حلكة الليل . وخيل إليه أنه نسى الطريق وأنه من المحال أن يهتدى إليه . فأخذ يتلفت يمنة ويسرة حتى أبصر بأحد

المسافرين النازلين معه ، وكان لا يزال على الرصيف مشغولا بربط قطع متاعه بعضها ببعض مع رجل آخر يعاونه على حملها . فتقدم منهما مسرعا قلقا وسألهما عن أقرب طريق لعزبة عامر أفندى . فسارع غلام دلت نبراته على حداثة سنه : ليس فى هذه المنطقة عزبة بهذا الاسم يا سيدنا الأفندى ، فانظر لعلك قد أخطأت محطتك المقصودة . فانخلع قلب سعيد وزلزلت أركانه وكاد يصرخ كالأطفال سائلا عما عساه أن يفعل .. ولكن الرجل الثانى أسعفه قائلا . لا ... لا ... مهلا يا بنى واسكت فإنك لا تعرف ما يعنى .. آه ... عزبة عامر أفندى .. سر نحو الجنوب قليلا ، ثم اعرج على يسارك تجد طريقا ضيقا يوصلك إليها بعد نصف ساعة على قدميك . فقال الغلام كأنما يستدرك شيئا فاته : لعلكم تقصدون عزبة أبو الغيط ؟ معذرة يا سيدى فكلنا هنا لا نعرفها إلا بهذا الاسم منذ زمن بعيد .

كان البرد قارسا وفى السماء سحاب كثيف راكد وإن لم يكن هنالك مطر . وسار سعيد بهذا الدليل الذى دعا له بالسلامة ثم حمل متاعه وسار . ومضى سعيد لطيته وهو يعجب من أن عزبة أبيه لا تعرف إلا باسم عزبة أبو الغيط فألهاه هذا الخاطر عن مخاوف الطريق لأنه ليس من القرويين . فلم يعرف كيف قطعه ولا فى كم من الزمن بل أحس فجأة أنه على مقربة من العزبة لأن قلبه كاد يكف عن الخفقان ... ولم يكن ذلك من حنين ولا من خوف فلقد ثارت عليه الكلاب من كل صوب فدمعت

عيناه لأنه يهاجم وهو فى صميم وطنه . ولأنها لا تعرف كيف يعطف على جنسها فى وطنه الآخر . ولكن ذاكرته أغاثته وأمدته فجأة باسم رجل من الفلاحين كانت أمه تشيد دائما بإخلاصه وكان خفيرا على هذه العزبة فصرخ فى الظلام صرخة يخنقها البكاء : يا عم شعبان .. أنا ابن عامر أفندى . فأنقذه عم شعبان .

كان الشيخ أبو الغيط كريما جدا مع جميع الناس . بخيلا على ملاك هذه العزبة . كان سلطانا من سلاطين الريف الذين يستنبتون الجريمة ولا يمسهم القانون إلا مسا رقيقا . ومن أجل ذلك كان يحيا فى سعة وكان من سلالة الأعراب ولعله احتفظ بميراثهم التالد من الكفر والنفاق فنشأ قاسيا جبارا . ولم يستقبل مالك العزبة فى منزله بل أنزله فى منظرة عامة بنيت قديما للضيافة فبسطت فيها حشية وأوقدت من أجله مدفأة ، ثم استمع الضيف إلى حديث عم شعبان حتى الهزيع الأخير من الليل ، كان حافلا بالذكريات عن عامر أفندى أيام كان يجيء مصيفا وعن طفولة سعيد أيام كان طفلا مدللا لو طلب بمناغاته قرص القمر لأنزله له الفلاحون .

ثم أصبح الصباح واستيقظ سعيد يمنى نفسه بأنه سيرى الشعر والسحر فى جنة أبيه المؤجرة فخرج يجوس خلالها . لكنه رأى ما لم يتوقع : لقد عاثت فى معالها يد الزمان فشوهت صورة لها كانت فى ذاكرته محتفظة بها منذ رآها للمرة الأخيرة ... ما لها هكذا قد زحفت عليها الصحراء ؟ حقيقة إنها عند السفح ولكن لماذا يتركون الرمال تغزو

أرضها الخصبة ! .. حتى إطار النخيل الذى يدور حولها مع السور أضحى القسم الغربى منه غارقا فى الرمل ، يشير بسعفه كأنه يطلب النجدة . وقد أطلت رءوس فسائله من الكثبان كأنها تنظر بعينيها إلى النور !! وأخذت طلائع الجدب تنشر الفساد فى التربة الخصبة من الشق الغربى ! .. وعريشة الكرم ، ما بالها تقلصت عنها الأغصان فأصبح معظمها خشبا عاريا ترتجف قوائمها مع الريح كأنها رجل شيخ عجوز انحسرت عنها أذيال القميص ؟ .. وشجرتا التوت القائمتان أمام الباب الشرقى الضخم ، فقدت منهما واحدة .. يقول بعضهم : إنها بيعت للحريق ، ويقول آخرون : إنها استهلكت فى أدوات الزراعة . والباب الثقيل الضخم الذى كان لا يدفعه الرجل إلا بصعوبة .. لقد ظل حينا طويلا من الزمن وهو مفتوح حتى تراكم التراب حول حافته السفلى فأصبح من المستحيل أن يتحرك . وهناك دجاجة تقرقر لفراخها من حوله لينبشن فى الثرى الناعم عن شىء من الطعام . كل شىء يوحى بالبؤس والفاقة ، وبدت العزبة كأنها تستنجد بمالكها . وقد كان على معونتها أعجز منها على معونته . فجعلا يتقارضان الرثاء الصامت .

ثم خرج الشيخ أبو الغيط بعد ارتفاع الضحا ليستقبل ضيفه الكريم ، وكان فى تبعيته رجل فارع الطول قاسى النظرة عجب سعيد حين سمع السيد المستأجر يناديه بعد أن جلسا على الحصير فى الشمس المشرقة فى حديقة الفاكهة التى تستطيع الخيل أن تركض فيها ولا تتعثر — عجب

سعيد حين سمعه يناديه قائلا يا : « كانون » ... اعمل شاى .

ـــ جئت فى الوقت المناسب يا سعيد أفندى . لأننى أفكر جديا فى ترك هذه الأرض لأنها أصبحت عاجزة عن أن تغل ما يسد إيجارها . يعنى تعبنا للشيطان !!

ـــ حفظكم الله !!

ـــ كما أقول لك تماما وأنا رجل حسن الحظ لأنك فاجأتنى بالمجىء . وأستطيع أن أؤكد لك أن ثمن القطن استنفدته الأموال الأميرية وبنك التسليف والأمر بين يديك . ولو أن السيدة والدتكم هى التى حضرت بدلكم لصرنا سريعا إلى التفاهم لأنها عاقلة : أما طيش الشباب ورزانة مثلى فى هذه السن فإننى أظنهما كفيلين بأن يجعلا التفاهم بيننا شيئا غالى الثمن ..

ثم قلب كفيه كأنه خسر الصفقة وفشل فى المفاوضة فى وقت واحد . فسارع سعيد يعلن إليه أنه حتى الآن لم يقل شيئا يستطيع أن يعتبره الشيخ أبو الغيط صوابا أو خطأ . فما كان جوابه إلا أن قال :

ـــ إننى أعرف النتيجة مقدما يا بنى فلا داعى للنقاش . وليس أمامى إلا أن أبيع المواشى أو أبيع الأولاد . (وبدا عليه الغضب فنفس عن نفسه بأن أمر بصوت شديد) : يا كانون .. شاى مرة أخرى !! . فاعترض سعيد قائلا :

ـــ لقد شربت الكثير أرجو أن تعفينى .

ـــ تستطيع يا بنى أن تفتش عن مستأجر آخر . ثم تكون بيننا تسوية عادلة فى المتأخر من الإيجارة .

وسكن الليل وأوقدت المدفأة مرة أخرى ، وكانت الكلاب تتنابح خارج السور فى الظلام وعلى سطوح بعض المنازل . على حين كان عم شعبان يهمس فى أذن سعيد ويقول له :

ـــ الله وحده هو الذى يستطيع أن يقيلك يا بنى .. من الذى يجرؤ على أن يشترى أو أن يستأجر فى هذه المنطقة أرضا كان يزرعها أبو الغيط ؟ ثم برقت عيناه فى وميض النار وفاض منهما رجاء ورثاء . و لم يكن سعيد فى حاجة إلى أن يرجىء سفره ، فقد استقل قطار الليل المسافر نحو الجنوب .

٨

« سيدتى : حاولى ألا تحتقرى هذه الرسالة فقد تجدين فيها شيئا جميلا . اقرئى هذه القطعة ثم حاولى أن تغنيها وأنت فى مخدعك أو فى حديقة منزلك ، وأؤكد لك أنك ستحسين أن طاقة السحر التى ستنبعث منك ستسحرك أنت شخصيا . وإذا راق لك أن تعرفى كاتبها فاطلبى بالتليفون فى أى مساء تشائين . من أطلقوا عليه اسم سعيد » .

وعجبت درية من غرابة الكاتب والمكتوب ، لأن الشاعر متواضع والشعر جد عظيم . ولأن شيئا من صميم ماضيها بدا مترقرقا وراء الكلمات كأنه يناديها .. فتذكرت شيئا قديما و لم تستطع أن تمسك قلبها عن الخفقان . وأقفلت مخدعها فى مساء اليوم الذى تسلمت فيه هذه الرسالة ثم اضطجعت على فراشها وبدأت تغنى، فإذا بالدموع تسيل على خديها . وعندئذ عرفت إلى أى حد تستطيع أن تؤثر فى الناس ، جعلت تفكر فى أمر هذا الشاعر وفى المصادفة التى جعلته يصيب قطعة من ماضيها فى هذه الأغنية الجديدة .

وكانت ألسنة الناس تتناقل حب درية ومنصور فى المدة الأخيرة فتخوض فى هذا الحب بطريقة الناس خوضا ينسج الخيال فيه ألوانا مختلفة من القصص . ثم يتساءل المتحدثون به بعد أن يفرغ كل ما فى جعبته : وإذا كان هذا صحيحا فلماذا لا يتزوجان ؟ ..

ويستأنف الخيال عمله مرة أخرى فيخلق ألوانا من القصص كان الحبيبان يراجعانها فى أصيل ذلك اليوم وهما جالسان فى حديقة منزلها مراجعة لا تخلو من اللذة . كان يسألها قائلا :

ـــ أليس للناس من عمل إلا أن يخوضوا فى شئون الناس ؟

فتعجب فى تظرف ساخر :

ـــ شئون الناس هى الشىء الوحيد الذى يمكنهم أن يفكروا فيه . ترى هل تستحسن أنت أن يعنى الناس بشئون الحيوان أولا وقبل كل شىء ؟

ـــ لا .. لست أقصد هذا .

ـــ إذا فلا داعى للمقدمات ، وهات ما عندك من القصص .

ـــ قابلنى أحد أصدقائى من الذين يعرفوننى ويعرفونك وكنا فى حفل جامع عظيم ، وبرز هذا الصديق فجأة من بين الناس ثم جذبنى من ذراعى فى عجلة من سيفضى بنبأ خطير ولا أكتمك أن مفاصلى قد ارتهكت من المفاجأة . ولما انتهى بنا السير إلى مكان نستطيع أن نتحدث فيه سألنى بلهجة العاتب قائلا : ألسنا أصدقاء يا منصور ؟ فأجبته بأن ذلك أمر لا يرقى إليه الشك . فاعترض قائلا : إذن فلم لا تعاملنى كما يعامل الصديق

الصديق ؟ فابتلعت ريقى متلعثما لأننى لم أفهم لكنه أردف حديثه : أتظننى أكره لك الخير ، فاستحلفته أن ينطق بالحكم بعد كل هذا . فما كان جوابه إلا أن قال : إذا كان أمر الخطبة قد تم بينكم فلماذا تكتمه عنى والناس كلهم يعلمون ؟ فلم أزد على أن هززت رأسى متنهدا ونظرت إليه فى عتاب ثم رجعت إليه حيث كنا نجلس وتبعنى هو إلى هنا ..

قالت درية وكأنها تحلم :

ـــ الزواج ؟ .. آه .. نعم الزواج .. هل تعرف مامعناه ؟ . حفنة من الماء تلقى على وجه الحبيبين ليفيقا من غيبوبة الأحلام . دقة الناقوس التى تؤذن بانتهاء ساعات اللهو والحرية .

فسألها فى جد عميق :

ـــ هل تريدين أن تفرى من الخاتمة لمرحلة الشباب عند كل فتى وفتاة ؟!

ـــ إن الجواب عن سؤالك هذا يستوجب سؤالا منى وإجابة منك : هل يستطيع قلب امرأة أن يتسع لهذه الألوان من الحب .. فـن .. وزوج .. وأولاد !؟ غالبا سيكون جوابك بالإيجاب ، ومن أجل ذلك فإنى أرى أن نؤجل النقاش فى هذا الأمر إلى آن آخر .. إنك تقول بينك وبين نفسك .. هذه هى المرة العاشرة التى أفر فيها من مواجهة الحقائق ، ولكنى أقول لك فى غير تردد : إن قلوب بعض الناس كثيرا ما تخط لنفسها طريقا شعريا تغرس الأحلام على جانبيه الرياحين ، حتى إذا ما

انقشع الحلم بدت الحقائق سيئة بشعة . وقد تكون مخيفة كابتسامة الجمجمة . لذلك فإننى كثيرا ما أناهض قلبى وأثور عليه . ولعلى فيما مضى قد وجدت فى خطتى هذه رياضة حلوة حين أسوق قلبى إلى الينبوع ثم أحاول وأجرب ماذا سيكون لو أننى رددته وهو ظمآن . وقد تكون الرياضة نوعا من التسلية لكنها تسلية مفيدة تعطى فى بعض الأحيان نتائج لم تكن منتظرة .

ثم إن حياتى أيها الصديق قد جمعت كثيرا من المتناقضات وحفلت بحوادث كنت أراها تافهة إبان وقوعها . لكن الزمان الذى يجد بنا مسرعا فى طريقه المجهول كشف لى أنها جد عظيمة ، ولعل هذا قد حملنى على ألا أخضع حياتى لقوانين منطقية لأن للأقدار منطقا مستقلا وحسابا لا نعرف أرقامه . وجدتنى فجأة وبلا تدبير أحب فنى يا صديقى . وأخشى أن أحب زوجى على حساب فنى ، أو أن أحب فنى على حساب زوجى . وقد يقول لى أحد الناس : إنك تستهينين بعمرك وتبذرين فى ثروة الشباب ؛ وثروة الشباب قليلة العد مهما تكن عظيمة !! ستجدين نفسك فى يوم من الأيام لا تعلمين كنهه ، وقد هجم عليك البرد والثلوج فأقول : نحن فى مصر . فى الوطن الذى حنت عليه الطبيعة فجعلت فصوله ربيعا كلها . فمن أين يأتى ما حدثتنى عنه ؟! فإذا بالذى يحدثنى يهز رأسه وتبرق ثناياه بابتسامة الإشفاق على ، ويعود فيقول : الشيخوخة يا سيدتى . الشيخوخة يا آنسة ، أعدى أعداء كل فنانة .

كيف تكونين حين ترين إحدى المجلات وقد نشرت صورا للذكرى والتاريخ ، وترين بينها صورة لك فى إطار ماحل من الانزواء والنسيان وتحت تاج من الشعر جميل أبيض ولكن على رأس غير الفنانة ؟؟ .. ثم تنظرين مرة أخرى فإذا بأسباب النسب التى تربط الإنسان بالإنسان وتصل الحيوان بالحيوان غير متوفرة لك . وهذه الأيدى التى كانت تصفق وتشير ليس هنالك واحدة منها تقرع جرس الباب لتقول : كيف حال من أطربت مجتمعنا فترة من الزمن ؟ ثم تنظرين مرة ثالثة وتفتشين فى كل صوب فلا تجدين شيئا .. إلا البرد والثلوج ..

ـــ هل بقى عندك شىء تقولينه ؟ ..

ـــ لم يبق عندى إلا أن أترك الشراع للريح . لأننى لم أصنع حياتى .. حياتى هى التى صنعتنى يا صديقى ..

وشردت كأنها تستعيد حوادث الماضى ثم هتفت فجأة : إنها شىء ظريف . ثم أخرجت رسالة سعيد من تلافيف ثوبها وقدمتها لمنصور ، فلما فرغ من قراءتها أبدى إعجابه بكل ما فيها . ثم أمسى المساء فناب الموسيقى عن صديقته فى طلب هذا الشاعر العاثر الحظ ، ولم يكد يفعل حتى ابتسم وهمس قائلا لها : إن الموسيقى تلاحقنى فى كل مكان . إن ألحانا جميلة تنصب فى أذنى من خلال السماعة .

ـــ من الجائز أن تكون أخطأت فى الطلب .

ـــ ربما .

وعاد فأدار قرص التليفون حريصا حذرا . لكن الموسيقى داعبت سمعه ، كما حدث من قبل . ورد صوت دل على أن المتكلم من النوبيين فقال له منصور : إن لم أكن مخطئا فصلنى بالأستاذ سعيد .. فأجابه النوبى : إنه على سفر ويستطيع السيد أن يترك رقم تليفونه .

تمر أيام معدودة يرجع سعيد فى خلالها من عزبة « أبو الغيط » خالى الوفاض مفلسا حائرا ، ثم يذهب إلى المقهى ذات مساء فلا يقول له أحد : إن أحدا سأل عنك فى غيابك . واستولى عليه هذا الخاطر وحاول أن يسأل ، لكنه خجل من نفسه . ثم حانت فرصة مر فيها أحد الخدم من أمامه فسأله فى تردد شديد ، لكنه فوجئ بما لم ينتظره .

وأجاب طلبه للتليفون صوت نسوى ساحر خيل إلى سعيـد أن صاحبته تغنى ، ولم يطل الحديث بينهما لأنه سيكون فى بيتها بعد قليل .

كان الوقت مساء والسماء محجبة بالغيوم ، لكنه لم يكن هناك برد ولا عواصف . وسلك الشاعر إلى منزلها طريقا يكاد هدوؤه يصل إلى حد الإقفار . كان النيل على يمينه يجرى فى فتور ، لا تسمع فيه إلا همسات يصبها فى آذان القاهرة كأنما يهدهدها بها حتى تنام . أما المساكن التى على يساره ، فقد كانت مقدمة طيبة تدل على النعيم الذى سيراه فى المنزل المقصود بعد لحظات قليلة .

وجعل يقلب ناظريه فى غرفة « الصالون » وهو جالس وحده يترقب الطلعة التى لعبت زمانا بقلب أحد أصدقائه . ثم يتجه إلى السماء بقلبه

الخائف وطرفه الراجف مستلهما منها النصر والمعونة . حتى إذا أهلت عليه حيت وجلست ، فجلس يفرك كفا بكف كأنه يطلب الدفء بهذه الحركة التى كان يستر بها اضطراب أعصابه . وكانت درية خبيرة بهذه المواقف فلم تدعه يحس طويلا بثقل الوطأة ، وبخاصة عندما رأت أمامها صفحة واضحة من الطيبة والسذاجة ، فضلا على شيء من الفاقة حاول الشاب جاهدا أن يسترها عن الأبصار .

قالت درية : لا أستطيع أن أكتم إعجابى بما أرسلته يا أستاذ سعيد .. وأنا واثقة كل الثقة أن مستقبلا باهرا ينتظرك . فرد دون أن يرفع إليها طرفا :

— سأعتز دائما بهذه الشهادة يا سيدتى .

— لكنك رجل عظيم التواضع .. مع أن التواضع قليل فى زماننا المغرور .

— عفوا .. فإننى لم أعمل ما أستحق عليه هذا الثناء .

— كذا ؟ .. ألم تقل شعرا قبل الذى أرسلته إلى ؟ .

— قلت الكثير .

— أين ومتى ؟

— فى سلال المهملات من زمن بعيد عند رؤساء التحرير . وعلى صفحات بعض المجلات الكاسدة التى لا يشترى أعدادها إلا الذين يكتبون فيها ، وعلى صفحات الليل حين يصحبنى الظلام والوحدة ..

وعلى صفحة الجدار الذى يقوم إلى جواره سريرى . وعلى صفحات قلوب الأصدقاء الذين أطمع أن أقول لهم كل ما يعتلج به صدرى .. وهذا يا سيدتى هو ديوان أشعارى .. فقالت مستغربة :

ـــ أنت مجيد .. فلماذا أراك غير مشهور ؟

فرفع إليها طرفه للمرة الأولى ثم أطرق . ثم شرع يتكلم فى نشوة وهدوء سحر ، كأنه سكر بعد أول رشفة :

ـــ إن سيدتى تتكلم عن شيئين ، وهى تظن أنها تتكلم عن شىء واحد .. الجودة شىء والشهرة شىء آخر . إذن فهما شيئان . غير أنه يغلب أن يكون كل مشهور جيدا ، لكنه لا يغلب أن يشتهر كل جيد ..

ـــ منطق سليم ..

وأومأت برأسها كأنها تستزيده ، فأردف :

ـــ مواهب الناس ككنوز الأرض ، لابد لها من مكتشف .. أم هل قد سمعت عن كنز فتح نفسه ؟ .. لابد من فرصة لكل فنان وإلا ظل قابعا فى زاوية النسيان حتى يذوى جمال فنه . كما تجف الأصص إن أهملتها يد الساقين .

ـــ قول جميل .

ـــ لو لم تحلى بلطفك عقدة لسانى ماستطعت أن أقول قبيحا ولا جميلا .

ـــ غير أنى أرجو ألا تأخذ الحياة كما يأخذها اليائسون ... هنالك ناس

كثيرون طرقت يد الفرج أبوابهم بعد أن طال انتظارهم فاستغرقوا فى النوم . ثم تبوءوا من الحياة منازل رفيعة . وأستطيع أن أقص عليك طرفا مما حدثنى به بعض عظماء الموسيقى عن نفسه فى صدر شبابه . فقال : ظللت من سكان السطوح إلى مدى خمسة عشر عاما . وكانت تقاسمنى مساءات الحياة ــ لأنه لم يكن هناك مسرات ــ خادم ريفية عجوز أعيتها الحيل فى إبادة الفيران التى كانت تأكل المتاع والطعام وتزعجنا ونحن نائمان : وحدث أن برز أمامها فجأة وهى مشغولة فأر كبير ، فمدت يدها إلى أقرب شىء تستطيع أن تحطم به رأسه ، ثم ضربته به ولكن الأداة هى التى تحطمت ونجا الفأر بأعجوبة . وقد كان جزعى شديدا عندما عدت من الخارج ، وما ذلك لأن فأرا قد نجا من الموت ، فأنا أعلم أنه لكل أجل كتاب . بل لأن الخادم هاجمته بقوس « الكمنجة » فكسر نصفين .. لكن أيام القسوة هذه تمخضت عن نعيم وشهرة ، وقد استمعت هذه الخادمة إلى أولى حفلاتى وكانت تمسح دموع الفرح بيدها المعروقة العجفاء ..

هذه هى قصة عظيم أيها الشاعر ، فلا تيأس !!

* * *

عزيزى راضى :

حاول أن تمسك قلبك حتى لا يثب من بين أضلاعك فإننى سأقص ما لا تستطيع أحلامك أن تؤديه إليك فى مدى خمسين عاما .

هل تتصور أننى رأيتها .. إن كنت واسع الخيال فتصور هذا يا صديقى ، أما إذا كان خيالك عبقريا فذا قادرا على أن يعمل المستحيل ، فتخيل أننى كنت فى إحدى حجراتها أتحدث إليها وتتحدث إلى ليلة اتفقنا على أن تغنى مقطوعة شعرية ، قلت لك ليلة خلتنى سكران إننى بعثتها إليها بالبريد . ستغنى بماضيكما فاستمع إليها عما قريب . وتستطيع أن تصنع بالمذياع ليلتئذ كل ما تشاء .. قبله إن شئت . واحتضنه إن أردت أو تصوره مغمى عليه من فرط ما به ، ثم صب على وجهه الماء !!

لماذا صورتها لى هكذا فى أحاديثك عنها ؟ . لم أرها كما صورتها . رأيتها جمالا عاطفا متوددا حنونا يدفع ويطمئن ويبشر دائما بالحظ والسعادة .

دخلت بيتها ثلاث مرات يا صديقى وكنت أحس فى كل مرة أننى أترك فى جنتها ثلث قلبى قبيل خروجى ، وتستطيع أنت بعد ذلك أن تجرى عملية حسابية بدائية ، تصل بها إلى نتيجة مقابلاتى .

هكذا أنا دائما كما تعرفنى ، آخذ القليل وأعطى الكثير . لكن ذلك الذى قصصته عليك غير قادر على أن يثير فى قلبك حرجا ولا غيرة . لأنك تعرف طريقة حبى .. حب لا تفاعل فيه لأنه من طرف واحد ، على أنها فى العلياء . ودائما فى العلياء . إن هبطت إلى بعض المساكين فما ذلك إلا لتواسيهم فحسب ثم ترتفع إلى عليائها من جديد .

لعلك تسمع عن اسم الموسيقى الملحن « منصور » إنه هو الذى

سيضع لأغنيتها الألحان ، رأيته فى بيتها مرتين من ثلاث زرتها . وأعترف لك بأننى كنت أحس وأنا فى حضرته بتضاؤل الهر فى حضرة النمر .. له شخصية جارفة قوية تنبثق من صوته وعينيه ، وبه اعتزاز وغيرة تذكرنى بطبائع الفرسان فى العصور الوسطى .

ربما كنت واهما أو مبالغا إذا خمنت أن هناك حبلا دقيقا قويا خفيا يربط بين ذراعيه درية ومنصور . لا ترع فإننى أحدثك عن أشياء أعتقد أن الزمن قد فرغ من أمرها . أعنى عن ذكريات حتى بالنسبة إلى .

* * *

كانت هناك رسالة أخرى مع هذه الرسالة التى تسلمها راضى ... كانت من أخيه الكبير كتبها إليه من القاهرة . وكانت خليطا من عتاب ورجاء وتذكير يثير فى النفس أشجانا كثيرة . كان يقول فى بعض السطور :

ــ لا أرانى راضيا أبدا عن خطتك المرتجلة وطريقتك العقيمة التى ما أنتجت شيئا خلال عشر سنوات.حاولنا قديما إقناعك بأن تتم دراستك فخالفتنا وقلت : إننى لا أريد أن أكون عبئا على أحد . ثم توظفت فلم تستطع أن تدخر حتى الآن شيئا يذكر » .

لكن عبارات الرسالة أخذت ترق بعد ذلك شيئا فشيئا :

« مالك تباعد بين الفترات التى تنزل فيها إلى القاهرة .. هل فقدت هذه العاصمة سحرها بالنسبة إليك ، أم أن خلاء الصعيد قد استطاع أن

يملك زمام نفسك الطيبة ويتحبب إليك حتى أحببته ...

أرى لزاما على أن أذكرك بأنك تخطو إلى الثلاثين من عمرك .. وأنك موظف مغترب تحتاج إلى من يوقد لك المصباح فى الليل ويدفئ فراشك فى كل شتاء .. ألم تضجر حتى الآن من حياة الوحدة ؟! « نبيل » ابنى إلى جوارى الآن ويرجونى فى تدلل لا يحسه إلا الآباء أن أبلغ عمه التحيات ، وعلى مقربة منى هنالك فى الردهة خالة نبيل الآنسة زينب وقد سألتنى الآن قائلة : لمن تكتبون ؟ فلما عرفت أننا نكتب إليك ابتسمت وأطرقت . فرأيت لزاما على أن أبلغك تحياتها » .

وطوى راضى الرسائل وجعل يحدث نفسه :

آه .. ما لى صرت هكذا ؟ .. كدت أنسى الناس . خيل إلى فيما مضى أننى سأستحيل إلى « ترسة بشرية » تحيا فى الماء واليوم يخيل إلى أننى أصبحت من سلالة القطارات من كثرة ما طالعت وجوهها ودبرت أمورها . وأصبحت أنظر إلى وجه أحدها الأسود فأكاد أقرأ فيه تاريخ ميلاده ، وألمح عليه تجاعيد الشيخوخة ، وأنظر إليه وينظر إلى كأننا من عنصر واحد ؟ ...

يا إلٰهى .. منار وقطار !! . وجنيهات يقسمها العقلاء إلى ثلاثين قسما !! هل هذه هى الحياة ؟ ...

ثم شرد ذهنه وندى طرفه بالدمع وسرح بصره من النافذة فأخذ يجول فى الخلاء هناك ويتواثب على الجبال المقفرة الصخرية التى تنصب عليها

حرارة الشمس فى قسوة وقوة . ثم تهاوت عليه الذكريات فاستعاد تاريخ درية وجر بعض حوادث الضباب الذى أخذ يرين عليها رويدا رويدا . ثم فرغ منها فجعل يذكر زينب . أخت زوجة أخيه . ويكادان هو وهى أن يكونا من مواليد عام واحد .

كانت تكثر من الزيارة كلما رأته هنالك وتهدى إليه من بواكير « أشغالها » هدايا جميلة . وتتطوع فتساعد أختها فى شئون « المطبخ » لأن ضيفا عزيزا زاد على الأسرة وزيارته تستوجب هذا الاهتمام ...

وكف بغتة عن التفكير فيها حتى تجيب نفسه عن هذا السؤال :

أيكون السر فى إكرام أم نبيل وتوددها له هو أنها تريد أن تربط بينه وبين أختها برباط الزوجية ؟ ..

وهنالك يوم فى ماضيها القريب لم يستطع أحد منهما بعد أن ينساه .

كان راضى فى بيت أخيه والأسرة كلها فى الخارج حتى الخادم كانت مع الخارجين . أما الضيف فإنه كان فى المدخل متطرحا فى استرخاء وهدوء وأمامه منضدة وفى يده لفافة وتحت عينيه كتاب ، كان يدخن ويقرأ ويفكر جيدا فيما يقرأ . ثم تخلى ذهنه فجأة عن متابعة عينيه فانقطعت الصلة بينه وبين الصفحات ، لأن طارئا غريبا استطاع أن يحتل ذهنه .

ما هذا ؟ .. وما الذى حول اتجاه أفكاره حتى ذكر الآن زينب وأخذت تنقل قدميها الصغيرتين نحوه فى جمال وتؤدة .. وابتسم . وهز

كتفه فى استخفاف وعجب ، ثم استغرق فيما كان آخذا فيه من قبل .

ودق قلبه مع دقات جرس الباب واحدة بواحدة لأن شيئا قال له:إنها هى . لكنه قام فى خمول وإهمال ليفتح الباب ، حتى إذا ما تفرج عن وجهها حيته بابتسامة ساقته إلى حيث كان يجلس فى هدوء وصمت . ثم أقفل الباب بيدها ثم جلست على كرسى قريب منه وكأنما تعمدت ألا تسأل عن سر هذا السكون الذى يسود المكان إلا بعد أن تبوأت مكانها :

ـــ أين الجماعة ؟ .. هل كلهم فى الخارج ؟ ...

فأومأ برأسه وعينيه . لأنه كان مضطربا وبخاصة بعد أن أحس اختلاجة خفيفة فى نبرات صوتها وشحوبا قليلا يموه خديها .

ـــ كأنك تؤثر الوحدة يا راضى حتى وأنت فى القاهرة .. لماذا لم تخرج معهم ؟ .. ولكن .. (وتلفتت ثم أطرقت ثم نظرت إليه ومالت نحوه قليلا) ما هذا الذى تقرأ فيه ؟!

ـــ قصة . (فأجابت بابتسامة لمعت معها ثناياها واتسعت بها عيناها) :

ـــ قصة ؟ ...

ـــ نعم قصة ...

وساد صمت قصير المدى كان هو فيه تحت سلطان ظن : هو أن تكون زينب قد عرفت بطريقة ما أنه وحده فى المسكن . أما هى فكانت تتهيأ للخطوة التالية :

— إذن فاسمع .. لا تغير الصفحة التى تقرأ فيها الآن ، وأنا لا أعرف ما تتحدث عنه هذه الصفحة بطبيعة الحال . وسأعمل عملا لطيفا هو أن تبدأ بالقراءة من السطر الأول فى الصفحة اليمنى ولا تكف حتى تخرج بمغزى أيا كان . وليكن هذا المغزى .. فألى أنا ..

لكن عينيها كانتا تقولان له : فألنا معا .. أنا وأنت ...

ولم يستطع راضى أن يقول لا . بل شرع فى التنفيذ :

« ... لكنه قال لها : الحب شيء والزواج شيء آخر . » .

فاربد وجه زينب كأنما لطمها الفأل . ثم سكت فمالت قليلا نحو الكتاب لترى بنفسها ما فيه ، على حين واصل راضى قراءته :

« ... لأننى يا سيدى رأيت فتيات أسعدن فى الحب أحبابهن ثم أشقينهم وهم أزواج بقية الحياة . حتى لكأنما كانت فترة الغرام والخطبة فى حياة زوجها أشبه بالتفاحة التى تقدم للمشنوق » .

وتوقف برهة قصيرة ليغالب ضحكة كادت تغلبه وليلقى نظرة على هذه التى طلبت فألا .. ثم عاد يقرأ :

« ... فابتسمت ساخرة من قوله وأجابته برفق وهدوء حتى كأنه كان يطريها : الذى يجعل الحب شيئا والزواج شيئا آخر ، رجل إما جاهل ، وإما منافق . أما التى لا تستطيع أن تسعد رجلا فإنها ولا شك غير جديرة بالأنوثة التى منحت لها » .

هنا وضعت يدها على رأسه وسحبتها برفق إلى الوراء حتى يكف عن

القراءة : فعلت ذلك وهى تقول : هيه .. ألم تكتف بعد ؟ .. ولكنه نظر إليها صامتا و لم يتكلم ، فوصلت حديثها قائلة . هل أعجبك ما قرأته ؟ فأجابها هامسا بعد أن شرد قليلا ببصره فى الفضاء : إن كنت تريدين الجواب صريحا لا مجاملة فيه ولا نفاق ! فاعلمى أن ثقتى فى المرأة ضعيفة جدا .. تكاد أن تكون هباء يا آنسة . كانت كفها لا تزال على شعره منذ وضعتها ساعة كانت تحول بينه وبين القراءة ، وقد تركتها زينب ثابتة فى مكانها حتى فرغ هو من حديثه وبدأت هى تتكلم . فجعلت أصابعها تجوس بخفة رفيقة كأنها تبعثر بين أصوله الحنان على حين كانت هذه العبارة تترقرق خارجة من بين شفتيها فى رقة وعذوبة :

ـــ إنك شديد القسوة يا راضى .. أقصد .. قسوتك على نفسك . إننى كلما تذكرت طباعك ورأيت الطريقة التى تعامل بها نفسك يئست من كل شىء ..

فنظر إليها يستوضحها ما تقول والتقت عيناه بعينيها فاستطاعت أن تبعث إليه بخدر خفيف ثم استطردت تقول :

ـــ نعم يئست من كل شىء لأننى أتألم كثيرا للنفس التى تشقيها بأعمالك .. آه .. ليتنى أستطيع أن أنقذ « راضى » من « راضى » ... أعتقد أننى أستطيع ولكن الفرصة لا تواتينى .

ـــ هل تقصدين ما تقولين ؟ ..

ـــ وأكثر مما تظن .

ـــ وحتى هذه الساعة بقيت على رقعة الأرض امرأة فيها وفاء ؟ ..

ـــ ليتنى أتمكن فألتقط قلبك من تحت قدميك قبل أن يفوت الأوان .

فلم يجب .. وظل ناظرا إلى الحائط الذى يواجهه بعينين ثابتتين لا تطرفان . أما هى فإنها أنزلت كفها من رأسه إلى كتفه ، ثم من كتفه إلى ذراعه حتى إذا لمست ظهر يده أمسكت بها قليلا ثم رفعتها إليها وأمرت عليها شفتيها وأهدت إليها حبا وحنانا وحرارة وقبلة . كل ذلك وهو جامد كأنه تمثال !!

ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى رأت زينب أنه لا مقام لها ، فودعته لكنها صفقت وراءها الباب بشدة .

قال راضى فى نفسه بعد أن استعاد هذه الذكريات : حقيقة إننا قساة ، نهدى الورود إلى اللائى لا يجدن علينا إلا بالآلام ، ونقدم الآلام إلى اللائى يحطن فراشنا بالورود .. أليس من الجائز أنها تسعدنى ؟؟ .

لكن ذلك لم يحل بينه وبين أن يسافر إلى القاهرة ليشهد فيها الليلة التى ستغنى فيها درية أغنيتها الجديدة . وليسمع ذكريات الماضى بعد أن استحالت إلى ألحان . وحرص على أن يكون فى أحد المقاهى العامة التى تقع قريبا من المسرح ، حتى إذا ما فرغت من غنائها قام يجر رجليه كأنه مخمور إلى حيث انزوى فى الظلام بجانب أحد الجدران ليلقى عليها نظرة وهى بالسيارة ، ساعة تخرج بها من الباب متهادية مختالة بمن فيها والناس من حولها يحيون ويمدحون وينظرون فى فضول . وقد فعل . ونظر . ولم

يملأ عينيه ، ولكنه سارع إلى أقرب حائط واعتمد عليه حتى لا يسقط .
ولو أنه أمعن النظر وحملق قليلا إلى الناحية الأخرى التى كانت فى اتجاهه وهو واقف لرأى شخصا عزيزا عليه . لرأى سعيد . فقد كان واقفا يترقب ليلقى عليها نظرة هو الآخر .. لكن واحدا منهما لم يقدر له أن يرى صاحبه .

٩

لا تستطيع الأيام أن تهادننا إلى وقت طويل .. إنها إن فعلت لكان معنى ما فعلته أنها غيرت فطرة فطرها عليها الله ..

و لم تكن درية التى جدت بها مركبة الحظ فى طريق السعادة خارجة عن نطاق الليالى وأحداثها فقد بدأت تنثر الحزن على حواشى أنسها جاعلة وفاة الأستاذ رضوان بداية لمنغصات يكتمها الزمن ثم يكشف عنها بعد حين واحدة فى إثر واحدة .

لم تلبس عليه الحداد ولكنها كانت حزينة النفس تحس بينها وبين قلبها أنها فقدت أباها .. مات مخيمر أفندى منذ زمن فبكت على رجل كانوا يخدعون به الحوادث وعلى من كان سببا فى أنها دلفت إلى الوجود ومشت على الأرض .

أما الأستاذ رضوان فقد كان أبا من نوع آخر ، رجلا جعلها تدلف إلى الوجود بعزة وتمشى على الأرض تجد بها مركبة الحظ . و لم تنس درية على مر الليالى أن تغذى الصلة بينها وبين أرملة الأستاذ رضوان رعاية

للذكرى واعترافا بالجميل .

وأظل مساء إحدى الليالى هادئا ساكنا جميلا ، اختلت فيه درية بمعزفها تناغيه كأنها تبثه بعض الهموم .. وكانت متفاهمة مع الألحان غارقة فى الأنغام حين دخلت عليها خادمتها لتقدم إليها بطاقة زائر ولشد ما راعتها المفاجأة حين قرأت اسم كمال بك ابن الجواهرجى فقالت للخادم : اعتذرى له بأننى متعبة لا أقابل أحدا . لكنها عدلت عن قولها حين رأته يقول فيما كتبه : إن المقابلة تتعلق بفن الآنسة . فحدثت نفسها قائلة : يعنى أنها مقابلة رسمية صرف .. تتعلق بالغناء . فأذنت له بالدخول .

كان مزهوا بشبابه فرحا به سكران منه . يتسلح تخنثه بالمال كما تتسلح امرأة بسيف . وكانت حقيقة المهمة التى جاء ليحدثها فيها أن له أختا ستزف إلى عروسها فى القريب وأن الأسرتين المتصاهرتين تطمعان فى أن تكون الآنسة درية كوكبا دريا ليلة الزفاف . قال هـذا ثم ضحك ضحكته المعروفة التى تثير حنق النساء والرجال على السواء .

ودخلت الخادم تحمل بين يديها جهاز التليفون وتجر وراءها جبله الطويل الأسود لأن أحدا من الناس يريد أن يتحدث إلى سيدتها .

حياها منصور تحية المساء ثم جعل يقول : أنا على مقربة منك وأود أن أتكلم معك فى أشياء عارضة .. ولكن .. يخيل إلى أنك فى غرفة « الصالون » .. هل عندك ضيوف .. من أى نوع ؟؟

ووقعت الآنسة فى حرج شديد ربما أحسه الجالس . ولكنها كانت

أشجع مما تصوره كلاهما لأنها صارحته باسم ضيفها وإن أقفل منصور طريق المحادثة بحركة لا تخلو من العنف .

لم يقل لها : إننى آت و لم يقل إننى عدلت . فتركها تحسب للحظات المقبلة القريبة ألف حساب . وشم كمال بك رائحة القلق فى جو الحديث ولعله ربأ بنفسه أن يعجل بالانصراف . ومضت فترة من الوقت ليست طيبة ولا جميلة سمع بعدها الجالسان فى « الصالون » وقع أقدام يجد صاحبها كأنما يريد شيئا قبل أن يفوته . ثم بدا منصور طويلا جامدا ماثلا أمام الباب وتوقف برهة نظر فيها إلى من فى الداخل ثم عبر وحيا تحية عادية عامة واتخذ مجلسه الذى شاءت المقادير أن تجعله حيث كان تماما يوم وقعت بينهما حادثة لعلك تذكرها .. وحتى كمال بك كان غارقا فى الكرسى نفسه والسلسة فى يمينه يديرها على سبابته فتلتف ويحلها فتنحل ، ويتطلع مرة إلى السقف ومرة أخرى إلى رقعة السماء التى تبدو لعينيه من النافذة المجاورة .

وساد الصمت كالذى يسود قبل أن تنطلق رصاصة أحد المتبارزين وكانت درية مأخوذة تبرق عيناها بالتوسل والرجاء والتحذير ولكن « منصور » لم يأبه لها .. كان كأن دما يناديه . كانت كرامته تصرخ فى داخله وكان ظل هذا الضيف ثقيلا على قلبه ، وكان يغار منه كذلك ، وتضافرت هذه العوامل جميعها ، وعلى أنه كان لابد من اللقاء .

لم تستطع درية أن تنكر اسم الزائر . و لم يقبل الزائر أن ينصرف بعد

أن رأى القلق على وجه المضيفة . ورأى منصور أن وضعه سيكون غير كريم إن نكص فلم يسع إلى بيت درية . وهكذا سلكتهم الأقدار فى حبل واحد فاجتمعوا فى « الصالون » .

وكان المال فى هذه المرة هو البادئ بالعدوان على الرغم من كل شيء . فقد قال كمال للآنسة بهيئة يظنها هو تلطفا وظرفا :

ــ هل نسيت يا سيدتى أنه من الضرورى المحتوم على من يجتمع أناس فى بيته أن يعرف المتجاهلين منهم بعضهم ببعض ؟

كانت لطمة ولو أن اليد فى قفاز من حرير .. فأسرع منصور يرددها قائلا .

ــ لعل كمال بك نسى أنه رآنى مرة .. يوم كنت فى المسرح الريفى المتنقل فى أحد الأقاليم . ويوم كانت الفرقة كاملة العدد .. لا ينقصها إلا مهرج واحد .

فاربد وجهه وبحث عن ريقه فى نواحى فمه فلم يجد منه شيئا : لكن رشده ثاب إليه بعد قليل :

ــ آه .. أظن أن ذلك المهرج يستطيع أن يقتل أحدا من الناس إن شاء .. بسيف .. من الذهب .. (وضغط الكلمتين الأخيرتين) .

ــ قليل من الناس ثرواتهم فى رءوسهم .

ــ وكثير منهم ؟ ..

ــ ثرواتهم فى « الحديد » .

ــ تبارك الذى خلق الأرواح جنودا مجندة .

ـــ سبحت بحمده كثيرا فى سرى منذ دخلت أنا هذه الغرفة .

ـــ إن الطبقة الراقية تعتبر الكلام النابى فى محضر السيدات شيئا بعيدا عن تقاليدها وطبعها .

فضحك منصور قائلا :

ـــ حتى النصائح .. من الذهب (وضغط الكلمتين الأخيرتين) .

ثم قام كمال بك غير مستعين إلا بالله وخرج يجر وراءه أذيال « رصيده » ، وكان منصور يشيعه بنظرات تفيض مرة بالحنق ومرة بالشماتة .

وخلا المكان للحبيبين فبدت عينا منصور تقدحان بالشرر ، أما هى فقد كانت فى شبه دوار كالتى خرجت من فورها من الدوامة . وارتفع صوته هاتفا فى شبه وعيد :

ـــ أعندك شىء تريدين أن تقوليه يا سيدتى ؟ ..

فأجابته متنهدة فى حيرة وانكسار وشحوب : لقد عنيتنى بالغيرة ..

فما كان منه إلا أن غادر المكان دون أن يحيى أو يتلفت .

وتطول فترة المغاضبة إلى مدى أسبوعين فلا لقاء ولا حديث بالتليفون وتنصرها الحوادث أو تخذلها فى هذه الفترة فتشغلها تماما عنه بشىء مهم . هو مرض أمها .

كانت من الأمهات اللواتى يحرسن أبناءهن طول الطريق ، ويسهرن على قافلتهن طول الليالى ولو دفعن الثمن من نور أعينهن وخفقات

أفئدتهن .

من أجل ذلك سهرت درية طويلا إلى جانب الينبوع .. ينبوع الحنان !! ورأته بعينيها وعيون كثير من الأطباء وهو يغيض قليلا قليلا حتى جف تماما فى إحدى ليالى الشتاء . كانت تبدو كأنها مرتاحة ساعة جادت بأنفاسها لأنها نجحت فى إرساء دعائم الأسرة . ولكن بقى لها.. مطلب واحد على الأرض .. حتى بعد أن تخلت عن الحياة .. كانت تقول ورأسها مائل على الوسادة وعيناها شبه مغمضتين : الوطن .. الوطن عزيز .. لا تنسى يا درية أن رفات أبيك .. مدفون .. هنالك .. فى أرض .. الصعيد ... (ثم انطفأ الشعاع ونفذت الوصية) .

وبقيت ذكرى الليالى الحزينة جاثمة فى قلبها فترة ، غير أن هذه الأحزان فتحت طريق العودة من جديد أمام منصور ، فلقد وصلها أيام مصابها وزارها وواساها . ولم يكن الحديث الذى يتداولانه فى هذه الفترة خارجا عن النطاق العادى ولكن عينيها كانتا تقولان له أشياء كثيرة :

قالت له أول ما رأته : إن الأحباب دائما ينسون ما بينهم من خلاف إذا ألمت بأحدهم ملمة . ثم انفجرت باكية وكانت تبكى ليلتئذ بنوعين من الدموع فى شوط واحد . ثم قالت له بنظراتها مرة أخرى فى يوم من الأيام :

— إننى أحس ساعة تدخل على عزلتى وتقتحم وحدتى وأحزانى ، أن أخا

يحمل مزية فوق معنى الأخوة يمد إلى يده لأعتمد عليها .. وكلاما غير هذا غزير المعانى توحيه العيون إلى العيون فى طرفة قصيرة .

حتى كان بينهما موقف حاسم :

كان هو متضايقا من ذلك الأمر المعلق ، أما هى فكانت فى سكرة المجد غير منتبهة إلى حياتها الشخصية . وكانت لا تزال حتى هذه اللحظة تروض قلبها على أعمال شاقة ، فتحرمه عامدة من أشياء يصرخ هو ملحا فى طلبها كما تحرم الأم وليدها العزيز . قال منصور وحزمه المألوف يطغى على جوارحه كلها :

ـــ أريد أن أعرف نهاية الشوط الذى نجد فيه متسابقين .. أعنى أريد أن أعرف الثمن الذى نجهد قلوبنا من أجله ونشمر أذيالنا للجرى فى سبيله ؟ ..

فأطرقت تنظر إلى ظهر كفيها وما لبثت أن أجابته :

ـــ آه .. لقد بدأت العاصفة تهب .. وإننى أخاف بوادرها إذا لاحت على وجهك (وابتسمت جاعلة من الابتسام توسلا وشفاعة) .. هنالك نوع من العواصف لا ينقشع إلا إذا حطم واقتلع ...

على أننا تكلمنا كثيرا فى ذلك .. و .. لا أعرف ماذا أقول .. منصور .. أنا خائفة ..

ونظرت . وكانت عيناها ساكنتين لا يطرف فيهما هدب واحد . وبدأ مغناطيسهما يخوض إليه فى الدمع قبل أن ينصب عليه ، فأحس حنانا

جارفا عميقا من ذلك النوع الذى يغفر الرجال بسببه لبعض النساء زلة كبرى ، لأن شعرا أسود وملابس حداد ووجها ناصعا مستطيلا متوسلا راجيا ، وعينين ساجيتين تنتظران من خلال الدموع وحبا واستسلاما — كل أولئك كانت كفيلة بأن تجعله يسجد . لكنه تريث وسألها فى رفق :

— ومم تخافين ؟ .. إذا كان وجودى فى نطاقك يزعجك فأنا على استعداد لأن أرحل بعيدا عنك .. يا سلام .. أتظنين أننى أبخل عليك ببضعة كيلومترات من الأرض تقوم بينى وبينك ، إذا كنت سأمنحك بها السعادة ؟ .

فأجابته بهمس منغم عذب شارد :

— منصور ..

— ......

— أحبك .. وأخشى أن أفقدك .. (فأجابها غير ناظر إليها) :

— وكيف ؟ ..

— حياة أمثالنا يا صديقى كثيرة الشعب . حياتى يا منصور كالميزانية المرهقة لا آمن معها أن يطغى فيها مطلب على مطلب !!

كانت مطرقة لأنها لا تطيق أن تتحمل عينيه ولكنها مع ذلك لم تسمع منه ردا بل كان محولا عنها وجهه . فسألته وهى كما هى :

— ألا تسمعنى ؟ ... ما بالك لا تجيب ؟! ..

فما كان جوابه إلا أن انتفض واقفا ثم قال لها بوجه مصمت لا يكاد

ينم عن شيء : وداعا ..

وانطلق كأنه سهم وكانت هى أكثر الناس فهما لمغزى هذه الأعمال وبخاصة إذا صدرت من منصور . فنادته فلم تحظ برد . فانطلقت فى أثره تعدو وتناديه فى ذعر وجزع حتى يظن من يسمعها أنها تريد أن تحول بينه وبين الانتحار . وأدركته فى آخر الردهة قبل أن يخرج من الباب الذى يصب فى الحديقة فتعلقت به وقالت فى توله الخائف من أن يفقد شيئا :

ـــ موافقة ... إننى موافقة ... أرجوك أن تعود معى .. حتى نتكلم فى التفاصيل ..

ثم رجعا إلى مجلسهما الأول :

ـــ نعم يا سيدتى ...

ـــ لا شيء يا أخى ... ألسنا متفقين ؟ ..

وغادرت مقعدها ووقفت أمامه تنظر فى عينيه .. كانت كأنها تريد أن تقرأ فيهما الغيب أو تعرف فيهما المستقبل . وغرد البلبل فى القفص المعلق فى الشرفة فذكر كلاهما حديثا قديما .. فبدأ فمها يهوى قليلا قليلا نحو فمه الذى كان متأهبا للقبلة .

* * *

لقد رسما خطة المستقبل فيما مضى من الزمن جزءا جزءا كلما دعتهما إلى ذلك إحدى المناسبات . وكان فيما رسماه واتفقا عليه بعد جدال ولجاج أن تعتزل درية الحياة الفنية العامة . وأن تقنع بما سخت به عليها

الدنيا فتخلص للحبيب الزوج ، ثم للحبيب من الأبناء فى حياة الأمومة .

و لم توافق درية على إعلان نبأ الخطبة كما اقترح منصور حتى تسافر إلى الصعيد وتعود . فسألها فى شيء من القلق عن سبب هذا فأجابته قائلة بعد تنهيدة خفيفة : لأننى أريد أن أصفى حساب الأحزان نهائيا لأستقبل ضوء الفرح بعين ليس فيها أثر للدمع .

وكان فحوى ما أرادت قوله هى أنها بنت مقبرة جديدة تناسب رفات أبويها وأنها ستشرف على نقل العظام من دار الخلود إلى دار الخلود ثم إنها لا تحب أن يكون عمل مثل هذا فاصلا بين ليلة الخطبة وليلة الزفاف .

فاقتنع هو ثم عاد فاقترح أن يرافقها فى الرحلة . لكنها أبدت عدم ارتياح جعله يعدل عن رأيه بسهولة .

وكانت ليلة من ليالى الصيف ...

لم يكن فيها قمر ... ولكن نجومها كانت زاهية مضيئة تستأثر بعينى كل ساهر ، وكان القطار الفاخر المسافر إلى الصعيد يطوى الأرض طيا لأن شوطه طويل يغريه بالتعجل والسرعة كأنه غير آبه بالأوطان التى يمر عليها لأنه لا وطن له . من أجل ذلك لم يتوقف إلا فى القليل من المحطات .

وانتصف الليل أو تجاوز نصفه بقليل ، وبدأ نسيم مثل هذه الساعات يتدفق فتتقيه الأجسام الرقيقة فكان ذلك مدعاة إلى أن تغلق درية عليها شباك المقصورة ، ثم ألقت برأسها إلى الوراء حيث أسندته على ظهر الأريكة وأسبلت أهدابها . وكان صوت الموسيقا الرتيبة التى تؤلف

ألحانها العجلات والقضبان هو كل ما ينصب فى مسمعها فى هذه اللحظة . لأن كثيرا من المسافرين قد بدأ النوم أو السأم يتسلل إلى نفسه أو عينيه .

ووقف القطار فى المحط التالى وفتحت درية عينيها لأنها عجبت أن يمر الوقت بمثل هذه السرعة ، ورجحت أنها نامت ، وألقت ببصرها إلى الخارج فلم تجد أثرا للعمران بل رأت مناظر تدل على أنهم فى محطة صغيرة ليس من المقرر أن يقف فى مثلها القطار .. هناك ظلام ونخيل وسكون . وأنفاس كأنها تلهث خارجة من فتحة الصهريج . وعامل « البلوك » ومعاون المحطة . وموظفو القطار يتكلمون ... ولا شىء إلا هذا ...

فأسبلت أهدابها ثانية ، ولعلها قالت بينها وبين نفسها : وما الذى يعنينى ؟؟ . وانقطعت الأصوات بعد فترة وعاد كل موظف إلى مكانه . وخيم الصمت مرة أخرى . ولكن درية لم تشأ أن تهتم لأنها تؤثر ألا يفطن إليها من عسى أن يعرفها .

وكان هناك على الرغم من كل هذا شاب يغدو ويروح على رصيف المحطة يفكر فى حيرة ويداه معقودتان على صدره . وبعد شوطين أو ثلاثة أشواط توقف فجأة أمام شباك درية وأحس كأن الأرض بدأت تدور به بل خيل إليه أن القطار نفسه قد تركه وسار دون أن يأذن له بالسفر .

وما انجلت عنه هذه النغمة حتى بدأ ينظر إلى النافذة من جديد . فألفى وراءها امرأة يكاد يقطع بأنه يعرفها وإن كانت تلبس السواد ،

وعلى الرغم من أنه يطالع صفحة خدها ويرى وجهها من جنب . ربما كانت هى وربما كانت صورة منها مرت بها الأقدار من هذه المحطة لتثير ذكريات كاد راضى يتغلب على مدفونها .

وتراجع راضى إلى الوراء قليلا لكنه ظل تجاه النافذة . ثم انحنى إلى الأرض فالتقط ثلاث حصوات صغار وقذف بإحداها فأصابت زجاج نافذتها برفق ولكنها لم تغير جلستها . فأردفها بأخرى فلما أحستها نظرت بكل وجهها إلى ناحية اليسار حيث كان الحبيب القديم ماثلا فى الظلام كأنه تمثال للتلهف والحيرة .. وبعد هذه النظرة استطاع أن يتأكد و لم يبق عليه إلا أن يقدم .

وطرق باب مقصورتها برفق ثم فتحه وانحنى محييا وهو يخطو نحوها الخطوة الأولى ... كان كل شيء فيه مضطربا حتى أمعاؤه لكنه حاول جاهدا أن يخفى ذلك عنها .

قال :

ـــ معذرة يا سيدتى فقد رأيت لزاما على أن أنبه الوحيدات من المسافرات إلى تعطل القطار قليلا حتى لا يركبهن القلق ..

وفرغ من عبارته ثم انتصب فى وقفته كأنه جندى ، وشرع ينظر إليها كأن المفاجأة لم تأخذه إلا فى هذه اللحظة فحسب . وبدت أزرار سترته النحاسية الصفراء تلمع تحت ضوء المصباح فتكاد صورة القاطرة المرسومة عليها تبدو لأى عين . أما درية فقد كانت تحت سلطان مباغتة

حقيقية بحيث أصبحت شبه عاجزة عن أن تحمل رأسها الذى كان ملقى على ظهر الأريكة ، وكل الذى استطاعت أن تعمله هو أن تحملق فيه بذهول كأنها مأخوذة حتى قال لها بصوت مهموس : لعلى غير مخطئ . فأجابت دون أن يتغير وضعها ولا أن يعود صوابها :

ــ مطلقا .. ولكن ...

ــ ولكن ماذا ؟ ...

فأشارت بيدها إليه ليجلس ثم اعتدلت لتقول :

ــ ولكن لم تفعل الأقدار كل هذا ؟ ...

ــ ماذا تقصدين ؟؟

ــ أقصد أن أقول . أهذا أنت يا راضى ؟ (ونظرت وقطبت كمن تحاول أن تفحص كل ما فيه ولكن ملامحها كانت حبا يخالطه شفقة) . ماذا يفعل بنا الزمان ؟ .. هل تزوجت ؟ . ومن أبناؤك ؟ .. هل تغيرت أنا هكذا مثل ما قد تغيرت ؟ . آه .. أرجو أن تكون نسيت الماضى .. هل أنت موفق فى هذه الوظيفة ؟ .. لعل أخبارى قد انقطعت عنك ... الأيام كفيلة بأن تصلح بيدها ما أفسدته .

كان قريبا منها على الأريكة ولكنها لم تعطه فرصة ليتكلم . أما كلماتها فقد كانت تخرج بعسر كأنها تتكلم وهى تجرى . كانت وطأة الذكريات شديدة عليها غير أن حنانها ساعة رأته خالطه شيء من الرثاء ففسد الحنان حتى لكأنها كانت تخطب فى تأبين شخص عزيز . ولعل راضى نفسه

أحس بطعم الموقف إحساسا صادقا حقيقيا ، فعرف أنها لا تعد رؤيته شيئا سيئا ولا تعدها كذلك مفاجأة سعيدة ، فأجابها فى جمود تخالطه خيبة الأمل :

ـــ أستطيع أن أجيب عن كل ما سألتنى عنه بجواب واحد .. وحتى هذا الجواب لا يعدو أن يكون كلمة واحدة .. هى .. لا ...

وساد صمت ... وبدأت أصوات جنادب الريف تصل إلى آذانهما من الحقول ونقيق الصفادع يتناهى إليهما من الترعة القريبة ثم نظرت درية إلى الناحية الأخرى وأولته صفحة خدها واتجهت نحو النافذة والليل والظلام وشرعت تقول وكأنها تلقى قطعة « محفوظات » وعتها عن ظهر قلبها جيدا وكان فى نبراتها معنى من القسوة أول ما قالت :

ـــ أنت وحدك المسئول عن كل ما وقع .. لم تركت الأيام هكذا تفصل بيننا طويلا ؟ . لم لم تكتب إلى فى طنطا أو تحاول مقابلتى بدل أن كنت تقابل خادمة مدرسة البنات ؟؟ ... (ورقت حواشيها قائلا) ولكن .. لا فائدة فى استعادة أسباب الفشل ما دامت قد غابت مع الأمس المولى ...

هل كان من واجبى كامرأة أن أتخذ نحوك خطوة إيجابية ؟ . وقبلت كفيها وهى تقول : لا (ثم عاودتها نبراتها القاسية) ثم لماذا هذا الترهب من أجل امرأة ؟ . أليس هناك إلا « نسخه » واحدة من كل فتاة .. بيننا كثير من البارعات فى تطبيب الجروح .

وسكتت وذكره قولها هذا بما سمعه من خادمة المدرسة ليلة قابلها للمرة الأخيرة فأطرق ولم يستطع أن يمسك دموعه ، لأنه أحس أن كلتيهما طلبت منه رجولة أعلى من التى أبداها .. فرثى لنفسه . واستدارت إليه درية فرأته على هذه الحال . وبدا لها أن تعطف عليه بشيء ، وقد كان هو مع الأسف فى موقف يستطيع أن يتقبل فيه الصدقات ، ولكنها تراجعت وحالت بين وجهه ووجهها حين أحست لفح أنفاسه وقالت له :

ــ لا ... عد إلى مجلسك من جديد ... بينى وبينك رجل .. وعهد .. (وبدا لها كأن عينى منصور تلمعان فى الظلام هنالك على الرصيف) . وانتفض راضى من مكانه ليغادر المقصورة . ولكنها هبت واقفة وأمسكت بثيابه وأخذت تقول فى تهدج وحنان :

ــ راضى .. أرجوك أن تنسى .. تزوج .. تزوج يا راضى . تزوج ، فإن الذى خلق الجروح قد خلق معها البلسم ...

فاستدار حتى واجهها وألقى عليها نظرة زحمتها المعانى فجعلتها غير مفهومة وقال لها : نعم يا سيدتى ... سأتزوج . وسأنسى ... وداعا إلى آخر الحياة ...

ولم يمض وقت طويل حتى سمع من فى القطار دقات ناقوس عظيم يجلجل فى سكون الليل وهو يقترب شيئا فشيئا ، وقد عرفوا فيه صوت ناقوس فرقة المطافئ . إنها فى طريقها إليهم لتملأ بخرطومها الضخم من

الترعة القريبة صهريج القطار الذى فرغ من الماء فتعطل . وكانت هذه النجدة من بنات أفكار معاون المحطة . الحبيب القديم . كأنما ألهمه ذلك الموقف الخشن الذى كان بينهما كيف يسير القطار بمن عطلت ركب حياته !!

* * *

قال لها منصور يوم قابلها فى القاهرة : ها أنت ذى يا صديقتى قد ختمت الأحزان هنالك بدموع ذرفتها فى أرض وطنك ، فلنفتتح عهد السعادة بإعلان خطبتنا ، فأجابته قائلة :

ــ ولنعلن شيئا آخر ، هو أن الحفلة الغنائية القادمة ستكون خاتمة الحفلات فى حياة غنائى .

وكان ذلك . وتسامع الناس بالخبر . وخيل إليهم أن يحتشدوا جميعا فى صعيد واحد ليروها تغنى للمرة الأخيرة ، التى ستهجر بعدها المسرح لتلزم البيت ولتغنى فيه إن شاءت لأشخاص معدودين فيهم رجل واحد والباقى صغار . واستدعت الشاعر العاثر الحظ لينظم لها أغنيتها الأخيرة .

كان فى غرفة الاستقبال ينتظر دخولها ، قاتم المزاج ثقيل النفس يوسوس له شيطانه أن حظه يتعقبه فى كل مكان حتى ولو هرب منه فى بيوت المحظوظين ... وكان شارد الطرف شارد اللب فى وقت واحد ينظر جامدا كأنه تمثال إلى تمثالين قد وضعا على إحدى المناضد يمثلان طائرين يشرب كل منهما من كأس أمامه .. كانا يتراقصان على التعاقب

كأنهما يشربان ، و لم يكن فى الكأس التى ينكبان عليها شيء من الماء ، وإنما كان سائلا صنعته الكيمياء لا يطفئ الظمأ ولا يحقق الهدوء .

وعلقت بهما عين الشاعر مدة لا تتحول عنهما حتى نسى نفسه ومجلسه فبدأ يحرك رأسه معهما حركة تجانس حركتهما كأنه انقلب إلى طائر ثالث . وحانت من درية التفاتة قبل أن تعبر العتبة ، فرقصت على فمها ابتسامة خفيفة حين رأته على هذه الحال ، ثم استرجعتها وحيته فأفاق من الغيبوبة .

كانت جالسة تجاهه تماما لكن عينيه لم تتحولا عن التحفة الجديدة أعنى الطائرين الذين عاونا « سعيدا » على أن يكون هو البادىء بالحديث :

ـــ فكرة جميلة ، هذه التى خلقتها الكيمياء ... لكن ..

(فسألته مبتسمة) :

ـــ لكن ماذا .. هل يعترض الشعر على الكيمياء فى شيء ؟

ـــ .. ليس بين طيور الأرض طائر واحد حظه مثل حظ هذين التمثالين .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أعنى أنه رمز بهما إلى حظوظ الناس .

فنظرت إليه بعينين فيهما اهتمام وإنصاف واستزادة :

ـــ أقصد .. أريد أن أقول : إن بين الناس ناس يقفون فى الحياة مثل

هذا الموقف .. ينكبون على كل شيء يظنونه ماء ، فلا هو يرويهم ولا هم يرجعون ...

فقالت برثاء يخالطه حنان . أو بحنان يخالطه رثاء :

ــ مساكين ..

ــ جدا .. ولو أن أحدا من الناس يحس دائما بأنهم مساكين لكان من المحتمل أن ينتج هذا العطف شيئا يمنح .. شيئا أيا كان يخفف عن قلوبهم بأساءها .

ــ وهل الناس مسئولون عن رجل أو امرأة ينطوى كل منهما على نفسه فلا يكاد يحس أحد بجراحه . حتى إذا ما قتلهما الجرح جأرا باللوم والشكوى وهما فى النزع .. بعد أن يفوت الأوان ؟!

ونظر إليها سعيد فألفاها غير ناظرة إليه . ورأى ظلالا عبقرية غريبة تتراقص على وجهها الفاتن وكان بينها ولا شك ظل من الحب والحيرة . فأمسك قلبه حتى لا يثب من بين أضلاعه . يا قدرة الله !! .. لعلها تعنيه .. تعنى سعيدا هذا الذى يجمعها ويجمعه المجلس . وإلا . فمن تعنى ؟ ..

ــ لكننى أستأذن فأسأل سيدتى : أى النتيجتين أخف وقعا على هؤلاء الذين يلعقون جروحهم ، الموت بالجرح أو الموت بالسخرية ؟

ــ هذا هو الذى تتفاوت فيه الناس .. إن كلمة تقولها لشخص فى الساعة العاشرة قد تؤتى ما لا تأتيه هى نفسها إن قلتها له بعد خمس دقائق .

— أصبت يا سيدتى .. إنها فرص .

فحملقت فيه ، وذكرت منصورا ، ونسيت « راضى » الذى كانت تعنيه بكل ما قالته ، على حين ظن الشاعر أن حبا غامضا بدأ يحبو فى طريقه نحو قلبها وأنها تنتظر منه كلمة .

ثم تغير الموقف تماما بعد لحظة قصيرة حين انتفضت كأنما صب على رأسها ماء ، وأعربت له عن تفاصيل ما استدعته من أجله وخرج سعيد بعد مدة غير طويلة ليبحث عن مكان يأوى إليه فينظم لها فيه آخر أغانيها .

وحانت الليلة الأخيرة واحتشد لها الناس ...

بدأت فرقة الموسيقا فكانت كأنها تنتحب . وبعض الأوتار كانت كأنما يقطر منها الدمع ... أما الكمان فقد بدا وكأنه جد حزين . كان يئن أنينا رفيعا مثل الخائر المتهافت . وكأن الكون كله يتصبب لهذه التى تودعه بأغنية .

وأخذت تغنى بما نظمه لها سعيد ، بتلك المقطوعة التى بث فيها حبه ودس فيها يأسه وودع بها عهدا لم يكن عظيم الخصب بالنسبة إلى قلبه . لكنه تمنى لو أنه دام ..

وامتدالليل والسامعون يضجون ، والصوت يتصبب من كل مذياع وينبعث من كل نافذة وباب . وكانت هناك عروس لا تزال فى شهر العسل نقلت المذياع إلى مخدعها فلما أدارت مفتاحه سحرها الصوت وأسرتها المعانى . وكان زوجها إلى جوارها فى مباذل جديدة تفوح من بين

أردانه عطور الزفاف ، فلما نظرت إليه زوجته ألفته مسحورا هو الآخر إلا أنه كان تحت قوة أشد من التى تعانيها لأنه أسبل عينيه قليلا قليلا حين سمع الغناء وأخذ يدنو من عروسه رويدا رويدا كأنه ثمل ويتحسس بفمه طريقه إلى شفتيها . وقبل أن يتلامس الثغران بكى كأنه طفل ثم ألقى برأسه على كتفها وأدار ذراعه حول عنقها وقال لها : مالك ترددين هكذا ؟ .. امسحى قلبى بحنانك .. فقد كاد يتلفه الحب .

فأقبلت عليه تمسح رأسه وخديه ، وقلبه وشفتيه فى وقت واحد ، وكانت تقول له بين كل قبلة وقبلة :

ـــ لم يخدعنى أبدا .. إن قلبى غير كذاب .. كنت واثقة من أنك تحبنى .. جدا وإن أظهرت لى خلاف ما تبطن ..

كان هذان الزوجان فى الصعيد ، يقضيان شهر العسل فى مسكن قريب من المحطة . وكانا يعرفان الوقت دون أن ينظرا إلى الساعة لأن صفير القطارات الذاهبة والآتية كان يتناهى إلى سمعهما فيجعل راضى أصابعه فى أذنيه وهو ينظر مبتسما نحو زينب .

١٠

وعاشت درية فى أيام حلم جميل ..

فى تلك الأيام والليالى التى تسبق زفافنا فى العادة والتى توشيها يد الخيال بكل طريف فاتن . والتى تحفل بالمفاجآت يهديها كل واحد منا إلى الآخر .

وفى ليلة من هذه الليالى أعدت لخطيبها مفاجأة .

وقفت بها سيارتها على بابه لتهجم عليه فى عش « العزوبة » دون إنذار ولتقف معه أمام كل مرفق من مرافق بيته البسيط ثم يرسلان ضحكة تنم عن السعادة .

و لم تقرع الجرس . وإنما وقفت تنقر بأصابعها على بلور الباب نقرات منغمة سمعها منصور وهو يعبر الردهة فى طريقه إلى إحدى الحجرات ، فخف يفتح لأن خادمه كان فى المطبخ فلم يسمع شيئا .

وألفى نفسه أمامها وجها لوجه . وركبته المفاجأة فلم يتكلم و لم يبتسم ، وكانت ضحكتها الناعمة الأخاذة لا تزال بقية من صداها تجلجل

على بسطة السلم . و لم يفق منصور إلا بعد أن عبرت الباب وأخذت تخطو فى الردهة خطوتها الرابعة . فقال : هذه أبرع المفاجآت بلا شك . فأجابته فى تلطف وابتسام : لا تدعنى أتحير .. قدنى سريعا إلى غرفة الصالون من فضلك .

واستطاعا أن يشربا الشاى فى ذلك المكان المتواضع ، واستطاع منصور أن يؤكد أن هذا الحى سيبيت ليلته هذه وهو يزهو على بقية أحياء العاصمة ومن بينها الحى الجميل الهادئ الذى يربض بين حدائقه منزل الآنسة درية .

وكان لابد من جولة فى أرجاء المنزل فتستكمل المفاجأة سحرها المنشود ، ووقف منصور على باب إحدى الحجرات وأخذ يدير أكرة بابها بيد بطيئة ووجه معبر مشرق وهو يقول :

ـــ هذه هى حجرة نومى يا سيدتى .. هل يروقك نظامها ؟ ..

كانت خطواتها متقاربة فى رعشة ودلال . وتستطيع أنت أن تعرف كيف كانت الخواطر تنساب فى رأسيهما . لكن خاطرا واحدا كان من المتفق عليه وكان لابد أن يقع .. وذلك هو القبلة .

قطع الأثاث فى الحجرة بسيطة قليلة ، تنطق بأن صاحبها منظم ، نظيف ، متوسط الحال . وهنالك بعض صور شمسية معلقة على الحائط ألقت عليها درية نظرة من بعيد وهى واقفة ثم همت بأن تستدير لتخرج لكنها عادت فتوقفت لتلقى نظرة أخرى على صورة كانت على الحائط فوق

رأسها حيث كانت تقف ، فلم تتمكن من أن تراها .

كانت لفتاة فى ربيع العمر . نجح من صورها فى إبراز ملامحها المتفائلة المتوددة ، وثوبها الذى يرجع طرازه إلى خمسة عشر عاما . كانت كأنها تناجى كل من ينظر إليها . بل هنالك ما هو أبعد من ذلك بالنسبة لفمها المبتسم ... يخيل إلى كل من رآه أنه سينطق فورا بكلمة واقفة على الشفتين !! وذكرت درية شيئا بعيدا . وخفق قلبها لهذه الذكرى ولكنها ابتلعت ريقها واستردت هدوءها وسألته :

— من صاحبة هذه الصورة ؟..

— هل جعلتك تحسين شيئا من الغيرة ؟..

— ربما .

— إنها لا تستطيع .

ثم اقترب منها حتى وضع يده على إحدى كتفيها وواصل حديثه قائلا : سأخبرك باسمها حين نأخذ مكاننا فى حجرة الاستقبال . ولكنه فرك كفيه هناك وفتح حديثا طال أمده ، تناول به الجو والحى والزيارة وروعة المفاجأة . وجعلت هى تنصت وتفحص حتى رأت ظلا من القلق متحيرا على وجه منصور :

— لقد نسيت شيئا ... نسيت أن تخبرنى من تكون هذه الفتاة ؟

— آه ... لم أنس ذلك إلا لأنه غير مهم ... لقد ماتت على كل حال ... ولو كانت الحياة مقدرة لها وامتد بها العمر ... لكانت اليوم

قد ... قد ... جاوزت الثلاثين .

ففتحت درية عينيها فى شبه ذعر وقالت :

— كذا ؟..

— ماذا يعنينا من الأموت يا عزيزتى ؟!

— يعنينا منهم أنهم كانوا أحبابنا فى يوم من الأيـام .. وأنهم .. (وفتحت حقيبة يدها لتخرج منها منديلا ولكنها ظلت ناظـرة إلى جوفها) وأنهم جادوا علينا فيها بلحظات من السعادة ... ربما كنا فى ذلك الوقت أشد البائسين حاجة إليها .

فشرد ببصره نحو السقف . وأقفلت هى حقيبتها ونظرت نحو الباب . وبدأ جو الحجرة يثقل هواؤه كما يثقل قوام السوائل . وأخذ هو نفسا طويلا قبل أن يتحدث ، ثم تحدث كما يتكلم وسيط المنوم :

— كان اسمها نادية ... نادية ... لم تكن حبيبة ... ولم تكن زوجة ، وإنما كانت حبيبة وزوجة فى وقت واحد ..

— لمن ؟.

فلم يجب ولكنه أشار بأصبعه نحو نفسه ، وبقى جامدا فى جلسته كما كان ، واستأنف حديثه على الطريقة الأولى :

— أذاقت قلبى لونا من الحب كان صارخ الحلاوة .. فلما تخلت عنه تركته عاجزا عن أن يذوق الطعوم ... كان يحس كأن كل شىء فقد خاصته وأن الأرض فى سبيلها إلى أن تتغير .. حتى شعرت كأننى

محاصر .. فى قلعة من الوحشة والوحدة والنسيان .. لم يستطع أن يقتحمها على إنسان فينجينى من الأسر ... إلا أنت ...

ـــ زرتك فى منزلك للمرة الأولى لأجعلها مفاجأة لك .. فأعدت لى الأقدار مفاجأة أعلى وأروع . ثم لمعت عيناها بالدموع وقالت بهمس :

ـــ إنك لا تعلم يا منصور أنك زوج صديقتى ... آه ... سأرقص على قبرها يا صديقى .. مالى أذكر كل شىء حتى كأنه وقع أمس .. كانت تحبك .. كانت تحدثنى عنك فتنسى أننى أخاطبها وتتمثل حتى كأنها تناجيك .. ما بال الأقدار تسخر منى هكذا ؟.. سأحس فى ليلة قريبة أنها هى التى تغلق علينا باب مخدعنا ثم تنحنى عند الباب وتقول لنا : طاب ليلكم وسعدت أحلامكم ... ولكن ...

صرخت فيه : لم كتمت عنى كل هذا ؟..

ـــ كان ذلك فى ربيع العمر . أيام كنا عاطفة خالصة حرة طليقة لا تستطيع قوة على الأرض أن تتحكم فيها . كنت موسيقيا هاويا وتاجرا صغيرا حين أحببتها فاشتركت مع الموسيقا فى انصرافى عن العمل فكسدت تجارتى وأصبحت من المفلسين . لكن بسماتها شجعتنى وتزوجنا فى القاهرة . واستقبلنا شهر العسل بنفقات عادية ثم ارتحلنا إلى الإسكندرية حين وظفت فى خفر السواحل بمرتب ضئيل لكن الحياة كانت دائمة البسمات ... وأنجبنا ولدنا الأول الذى لا يزال فى بيت الأسرة بالإسكندرية وفى رعاية جدة وأعمام وعمات ... وقد تركته

هناك بعد أن خطفها الموت ...

وسكت وشرد . ونديت عيناه بدمع يسير . وأحست درية أنه سيبدأ بوصف الليلة الأخيرة التى قضاها ساهرا بجوار فراشها حتى قضت .. ثم أسبل أهدابها .. ثم قبل فمها البارد .

ولم تشأ أن تسمع هذا ، وما كانت لتحتمله ، فانتفضت واقفة . وقالت بلهجة فيها عتب وحب وغيرة وحيرة :

— منصور .. لا بد أن ننظر فى قضية زواجنا مرة أخرى .

ثم انصرفت .

لم يكن هنالك أقسى على قلبه ولا قلبها من هذه الأيام التى توالت عقيب هذا الحديث . زارها فى منزلها مرة ومرة ثم باعد ما بين الزيارات بعد ذلك ، ولكنها كانت لا تجيبه إلا بالدموع ، حتى إذا ما يئس وثارت فيه الشخصية العارمة قاطعها ، وعاشت وحدها فى عزلة نسجتها حول نفسها امتدت ثلاثة شهور توقف فيها الحبيبان عن النجوى والحديث وتأثيث البيت وتبادل الأمانى .

وفاحت رائحة الخلاف حتى انتشرت فى الخارج وتناولها الناس بطريقة الناس فأكد بعضهم أن الخطبة فسخت نهائيا ، وكان ذلك من جانبها أعنى أنها هى البادئة . وعللوا ما قالوه بأن لها فى الحياة غايتين لا ثالثة لهما : الشهرة والمال ، وقد نالت كلتيهما ، فماذا يعنيها من أمر الرجل ؟.. وقال أناس : إن منصور اكتشف فجأة أنها تحب رجلا

غيره ، ومن هذا السعيد المحظوظ ؟.. وتهامسوا بصوت جد خافت . هو كمال بك .. ابن حسن الجواهرجي .

وقال فريق : لا ... لا ... بل وقع العكس ... إنها هي التي اكتشفت بغتة أنه يحب غيرها ... فتاة من حديثات السن الجميلات .. اللائي كان جسدهن لهن جواز مرور . وقد تعقد الأمر ، لأن مخلوقا ثالثا ظهر فجأة بين الموسيقى وخليلته الصغيرة ، وهذا المخلوق لم يتنفس بعد أنفاس الحياة .

وهكذا طال عليهما الليل حتى صار شهورا . سكت كلاهما حائرا سادرا لا يأخذ ولا يدع . وبقيت المسألة معلقة فى عجلة الزمان يدور بها فى حلقة مفرغة حتى كانت إحدى الأمسيات :

ـــ حملت إليها الخادم بطاقة شخص عجبت لإقدامه على زيارتها وراعها منه صفاقة ظنها شجاعة . وكان ذلك الزائر هو كمال بك . كانت يد درية ترتجف وهى ممسكة بالبطاقة لتقرأ فيها : « يرجو التفضل والسماح بالمقابلة » . ودعتها غرابة الموقف إلى أن تصابر نفسها حتى ترى غوامض الموضوع ، وكان ذلك ، ودخل الشاب كما تعود قديما يمشى متثاقلا كأنه يجر خزانة من الحديد ، ثم حيا وجلس .

ومرت لحظات صامتة لا حس فيها ولا حركة إلا السلسلة الذهبية التى يديرها الزائر حول سبابته لفا ونقضا ، وإلا تغريدة أو اثنتين جاد بهما البلبل الجديد الوارث للقفص فى الشرفة بعد أن مات سلفه أثناء الليل وفى

ليلة من لياليها الموحشة ، التى نبتت فيها القطيعة بينها وبين منصور . انقضت هذه الفترة قبل أن يقول كمال بك :

— كثيرا ما يحس الإنسان أنه يعطى أكثر مما يأخذ . ولكنه يشعر مع ذلك بالسعادة . فقالت بجفاء :

— لى مطلبان ..

— أولهما ؟

— أن تقف فورا دوران هذه السلسلة لأننى أشعر بالدوار كلما راقبتها !!

فجمعها سريعا ووضعها فى أحد جيوبه ، وبدا على وجهه الامتثال مقدما للأمر الثانى . لكن فى هيئة لا تخلو من التكبر المستور .

— والمطلب الثانى : هو أن تتخلى عن بعض عادات قديمة اخترتها لنفسك وجعلتها حلية لحديثك ، هى الغموض الذى يكتنف كل ما تقول .

— أستطيع أن أوضح الواضح مرة أخرى فأقول : إن المجتمع المصرى الراقى يتفقدك منذ أشهر فلا يجدك . وإنه يسأل عنك بكل أفراده . وهو مع ذلك يشعر بالسعادة حين يسأل عن التى لا تفكر فيه .

وشمت درية من حديثه أنه يريد أن يطارحها الحب من خلف الستار ! ورددت بينها وبين نفسها قولته : « وهو مع ذلك يشعر بالسعادة حين يسأل عن التى لا تفكر فيه » ، وساد صمت طويل ثقيل لم تجد فيه شيئا

تفعله إلا أن تتنحنح وتلمس غدائر شعرها ، ولكن كمال بك أعفاها من العناء لأنه شرع يتكلم عن أحدث طراز من السيارات ، ثم جره الحديث إلى ثمنها ، ثم جره الثمن إلى أن يقول :

على أن هنالك أشياء يا سيدتى يستطيع الإنسان أن يمنحها من الثمن فوق ما يطيق .

ولكنها لم تجب .

ـــ ألا تجدين فى كلامى هذا معنى يستحق الرد ؟!

فنظرت إليه متفلسفة متكبرة حزينة :

ـــ تتكلم عن المال ؟.. فى مقدورى أن أضع فوق ظهرك أثقل الخزائن قبل أن تقوم من مقامك ... على شرط .. أن تمنحنى نوعا من الراحة هبت على نسماته فى بعض أيام حياتى !!

وسكتت وأطرقت وكانت واضعة فخذا على فخذ . منطرحة على الكرسى غارقة فيه كأنها مرهقة . وخطر لها منصور وأحست أن فى الموقف شيئا من المساومة فبدأت أعاصير الغضب تهب على وجهها المكدود : .

ـــ ما هذا يا سيدى ؟؟؟ هل فقدتم عقولكم حتى زين لكم أن كل شىء تشترونه بالمال ؟!

ثم وقفت قائلة : أرجو المعذرة فإننى متعبة .

وما كان ذلك الفتى المغرور أن يتقبل الصفعة صامتا.ولو كانت من

كف أنثى ، لأنه قام متثاقلا ويده تتحسس موضع السلسلة فى أحد الجيوب حتى إذا ما استوى قائما كانت يده تديرها على سبابته لفا ونقضا . وقد علت شفتيه ابتسامة سخرية خفيفة ، ثم سار إلى الباب فى مشية مسرحية ، ودرية خلفه يأخذ الغيظ منها كل مأخذ ، حتى إذا ما سمعت بوق سيارته يدوى فى الخارج تهافتت على سريرها باكية منتحبة .

ودفنت رأسها فى إحدى الوسائد حتى لا ترى إلا الظلام ، ثم جعلت تستعيد الماضى فترة فترة :

لقد عجزت يا ربى .. عجزت تماما .. كنت أتخيل فى بعض الأحيان أننى أستطيع أن أصنع لنفسى السعادة .. فأطلت على الأقدار من نوافذ السماء .. وجعلت تصنع لى الشقاء !!

فمى مر .. آه فمى مريض ... أصبحت عاجزة عن أن أذوق طعم الحياة ، ثم صرخت كأنها مجنونة : راضى .. لقد كنت طفلا أبله .. كان فى استطاعتك أن تحتفظ بى لو أنك كنت قوى الساعدين ... فجعلتنى أفلت وباعدت بينك وبينى حتى فات الأوان ونام القلب فى مغاور النسيان .. لم تتبعنى أنت إلى مكان .. ولم تكن قويا بحيث جعلتنى أبحث عنك .. فضاعت علينا الفرصة .

وسكتت حتى تسترد أنفاسها :

ثم انقطعت عن الناس مدة طويلة فى سكرتى الفنية ... ثم أحسست بالوجود حين عثرت على منصور !! ثم ظهر راضى فى وقت غير مناسب

كما تظهر الزوارق بعد أن يغيب الغريق ، فدفعت راضى برجلى لا بيدى ، لأن بين يدى رصيدا من الرجولة كان فى منصور . فإذا به قد كان فى يوم ما زوجا لصديقة ، هو الآن والد ... ولكنى .. (كانت تتكلم ورأسها مدفون ، ثم رفعت الوسادة حتى بدت عيناها الدامعتان وأكملت قولها) : ولكننى أحببته .. ثم .. هأنذا سأفقده .

وعادت فدفنت رأسها مرة أخرى واستطردت : لماذا يظهر كمال على الأفق فجأة هكذا ؟ .. مال .. حرير .. قصور .. أشياء كثيرة . لقد سئمت !!

ثم تعتدل لتستلقى على ظهرها فى الفراش فتبدو كأنها خارجة من إحدى المعارك :

سئمت يا ربى .. أتمنى أن تغيب عن ذهنى معان كثيرة فرحت بها يوم عرفتها ، وتكون فرحتى اليوم أعظم حين أحس أنها غابت عنى . أريد أن أكون .. ماذا أكون .. ماذا أكون ؟ .. امرأة .. لا أكثر ولا أقل : امرأة واحدة من هؤلاء اللائى لا يعرف أحد أسماءهن ، ولا يقولون عنها سوى أنها حرم فلان .. منصور ، لا تجعل بعضنا يفقد بعضا حتى لا نعيش تعساء !!

ثم تسبل أهدابها كأنها على عتبات النوم ، وتستأذن عليها خادمتها بنقرة خفيفة وتدخل باكية ذاهلة خائفة مرتاعة ، لأنها قلقت عليها فأخذت تغدو وتروح فى الممشى أمام حجرتها حتى آن لها أن تنتهى مما كانت فيه . وأذنت لها بالدخول فأقبلت عليها فى مثل حنان الأمهات قائلة

لها :

— فنجان من القهوة ، أو كوب من عصير الفاكهة ، لينعشك يا سيدتى ؟

— أم مبروك .

— أزعجتنى يا سيدتى .. جعلنى الله فداء لساعة واحدة تتألمين فيها .

— أم مبروك .. تقدمى نحوى .. خطوة أخرى .. خطوة ثالثة يا أم مبروك . اجلسى على حافه السرير أمامى هكذا وأنا راقدة .. افعلى ما أقوله لك فلست محتاجة إلى قهوة ولا عصير فواكه .. أتسمـعين ؟ امسحى شعرى كما تفعل الأمهات .. أجل .. أجل . أنت أم .. كانت أمى تفعل هكذا حينما كانت ترانى حزينة .. ربتى كتفى يا أم مبروك .. أحسنت فى هذا كذلك .. قبلينى فى جبينى ثم فى خدى الأيمن ثم فى خدى الأيسر . ثم امسحى على شعرى وقولى أخيرا : لتذهب عنك الآلام يا بنيتى ..

آه .. أريد حنانا .

هل ترينني بخير ؟ فتنهدت و لم تجب . فقالت درية :

— ما عهدتك غشاشة طوال هذه السنوات .. نعم .. أنا أشعر بكل شىء .. إننى ذابلة .

فقامت المرأة من على حافة السرير دون أن تستأذن ثم ذهبت إلى باب فى الحجرة يفتح على إحدى الشرفات ففتحته ، فنظرت درية مستغربة من

فعلها على حين كانت الخادم واقفة فى منتصف الغرفة ، وهى تشير نحو الخارج :

ـــ أترين يا سيدتى جمال الأزهار فى هذه الأصص ؟ .. لن تستكمل جمالها إلا يوم تمتد إليها يد جديرة بها . فتقطفها .. ولم تنتظر حتى تسمع جوابا ، أقفلت عليها الباب برفق ، وانصرفت .

* * *

عزيزى راضى :

أصبحت أشم من خطاباتك رائحة الهدوء ، وأكاد أقرأ فيها عبارات الرضا بين السطور .

قلت لك من قبل أو قلت لى : إن حياتى وحياتك مربوطتان بكوكب واحد ، وقد كان هذا الكوكب فى منازل النحس ، ويخيل إلى الآن أنه على الحدود ، وأنه سيعير بعد قليل إلى منازل السعادة .

ألمح فى حياتك هذه المعانى وإخال أنك بدأت تحب ، تحب زوجك تلك التى كانت تحبك ، كثير من الناس يا صديقى لا يؤمنون بحب الزوجات ، ويرون أنه شيء مصنوع ، الفرق بينه وبين الطبيعة عظيم أشبه ما يكون بين أزهار الرياض وأزهار الورق ، لكننى أخالفهم واحذر أن تتهمنى فى رأيى لأننى محروم !! أخالف هؤلاء الرجال الذين لا يقدسون نشأة الحب فى ظلال الزواج ، مع أنه نبت نبتا صريحا واضحا مكشوفا لا يخبيء أحد اللاعبين فيه ورقة واحدة .

وهكذا بدأت تسعد ، وبخاصة بعد أن رأيت صورة الدنيا معكوسة في المرآة .. في سواد عيني ولدك الصغير ، فصارت كأنها ملكك .

وأنا كذلك كوكب نحسي عبر الحدود .. وبدأ يدرج في أرض السعادة . أكنت تتوقع أن تسمع مني هذا الاعتراف في يوم من الأيام ؟! لكن هذا قد وقع .. وكان حقا لا مرية فيه يوم تسلمت رسالة عليها خاتم الريف ، يقول لي كاتبها . أبشر يا سيدي .

قرأت هذه الجملة فغامت عيناي كأنما استل منهما النور ، فطويت الرسالة حتى أسترد قواي ، ثم عاودت نشرها لأقرأها فإذا بي أرى فيها أشياء عظيمة : « تستطيع أن تحضر فتؤجر أرضك أو تبيعها أو تزرعها بنفسك لأن « أبو الغيط » قد قتل .

قتل .. !! كيف ؟! لقد هضم جحيما بناره وزبانيته وشياطينه . فكيف مزقت بطنه رصاصة ؟ .

وطويت الخبر حتى عن نفسي فلم أعد أحدثها به ، فقد يكون هذا الخطاب مكيدة أو دعابة سخفها عميق .

وتناولت فطوري ثم استلقيت في سريري كسلان خاملا ، وجعلت أتصفح جريدة الصباح فراعني أن أرى فيها صورة القاتل والمقتول ، وكأنما تولت هذه الصحيفة عني وعن الناس تأبين الفقيد العظيم ، يوم قالت عنه وعلى وجه الإيجاز : إن كثيرا من الحريات المخنوقة في هذه المنطقة ستتنفس اليوم أنفاس الحياة .

وقد فات مراسلها أن يقول شيئا آخر ، فاته أن يقول : وكثير من

الأرزاق المحبوسة ستنطلق فورا فى طريقها إلى مستحقيها .. والبغى مرتعه وخيم !!

* * *

قرأت درية فى عينى كمال بك يوم زارها معانى متعاقبة من الإغراء والغزل والشماتة جعلتها تتدبر موقفها بشكل قاطع ، وكانت حريصة على ألا يطول الوقت لأنه من المحتمل جدا أن يذيع هذا الفتى المغرور بين الناس نبأ مقابلة درية له فى هذه المرحلة المرهفة الحساسة التى تقطعها العلاقة بينها وبين خطيبها . وإذا فعل هذا فلا يعلم إلا الله لون النهاية التى ستنتهى إليها القصة .

وطلبته بالتليفون فى بكرة اليوم التالى .. طلبت منصورا ، وكان صوته خشنا غير صاف يدل على أنه انتزع من النوم ، وليس ذلك فحسب ، بل يدل على أنه أفرط فى الشراب فى الليلة الماضية . وقد اعترف لها بذلك فى إحدى الليالى التى سادتهما الجفوة فيها ساعة قال لها : إنك بمعاملتك هذه ستخلقين منى سكيرا .. أريد أن أنسى فأشرب ، فأفيق فأوازن بين الصحو والسكرة فأرى الأخرى خيرا من الأولى ، فأعود فأشرب .

ذكرت هذا فاضطربت أنفاسها والسماعة فى يدها فأقفل الطريق ، ولكنها عادت فطلبته فلم يرد ، فلما ألحت سأل فى جفوة وخشونة :

ـــ نعم يا سيدى .. أرجو أن تكون قد أخطأت الرقم . فأجابه

صوت رقيق :

ــ أهذا أنت ؟ .. أنت « قومندان » الفرقة ؟

فشك فى صاحبة الصوت :

ــ عن أى فرقة تتحدثين يا سيدتى ؟

ــ عن الفرقة التى يكون لها « قومندان » فى العادة .

ــ آسف .. لأننى ..

ــ احذر أن تقفل الطريق لأنى أطلب فرقة المطافئ . فتلعثم وتحير لأنه لا يزال شاكا فى صاحبة الصوت ، على حين استطردت هى بلهجة ألفها فعرفها :

ــ ألست محقة فى هذا الطلب ؟ .. ألسنا نشعل النار فى ملابسنا بأيدينا ؟ .. منصور : لا تناقشني من فضلك .. كفانا ما فات !!

ومضت فترة جد قصيرة طعم بعدها فى بيتها صنفا من الحلوى شهيا حارا ، كانا يتصبران به معا حتى تنتهى أم مبروك من إعداد مائدة الفطور !!

١١

كانوا يتكهنون فى كل صحيفة وناد عن المكان الذى يـقضى العروسان فيه شهر العسل لأنهما غابا عن القاهرة فجأة وبلا إنذار ، وشاء هذان اللذان طالما أحالا ظلام الليالى إلى أضواء وأنغام أن يفرا من الضوء والنغم ، ليتذوقا طعم الحياة صرفا خالصا غير ممزوج ، لا يخالطه شىء .

وتوفرت لهما هذه الحياة على ساحل البحر .. هنالك ، على شاطئ بكر لم تتحكم فيه يد الإنسان بتنسيق ولا صنعة . رسمت تعاريجه الطبيعة وكتبت على رمله الأمواج سطورا أملاها عليها البحر .

هنالك فى « بلطيم » والصيف فى أخرياته ، أقام العروسان . كانت الغالبية العظمى من المصطافين تحزم أمتعتها قافلة نحو الجنوب وكانت أنسام الخريف تتحرش دائما بالموج ، ولم يبق من نزلاء هذا « الفندق » الناظر إلى البحر إلا أفراد قلائل ، فيهم الفنان والشاعر ، ومن لم تتح له فرصة النزوح إلى الشاطئ أيام كان الحر فى عنفوان شبابه ، وفيهم كذلك درية ومنصور .

غنت له فى الخلاء على موسيقا الهواء وصفق لها البحر وأهدى إليها منصور آخر الأمر طاقة من الأزهار البرية وطاقة أخرى صنعها فى وقتها . وكانت من القبل .

وكانا يقومان برحلات طويلة .. على الأقدام . يمشيان فيها حافيين على الرمل الذى يتاخم الماء والذى لا يستطيع أن يحمل أحدهما فتغوص فيه القدم ثم تخرج برفق تاركة رسمها على الأرض . وتطول الرحلة وهما لا يشعران أنها تطول لأنهما بركبان فيها مركبا من النجوى والغزل . حتى إذا ما ناداهما موضع ليجلسا فيه جلسا يحنو عليهما الكون . وتمسح عليهما يد النسيم ويبدأ واحد منهما فيؤكد للثانى أنهما عاشا فى هذه الأيام عمرا كاملا ، نام فيه الزمن وجرت عليهما المقادير بكل ما يسعد . حتى لو أن موجة من الأمواج زحفت عليهما ثم اختطفتهما وهما فى سكرة من سكرات العناق ، وفرت بهما إلى اليم ، ما حزنا على شىء تركاه كانا يؤملان فيه وتخلفت به عنهما الآمال .

وكانا يذكران آدم وحواء حين يجلسان على الأرض فى نهاية الرحلة وينظران فيريان الفندق بعيدا بعيدا ، والدنيا خلاء .. سماء وماء وأرض لا تخطر عليها قدم .

ورحلت عن الفندق البقية الباقية من رواده لأن ليالى الخريف بدأت تلبس رداء البرودة وبخاصة على الشواطئ وفى مثل هذا المكان ..

كانت الوحشة تخيم عند مدخل الليل فتستحيل هذه البقعة إلى مقام

كريه لا أنس فيه .. فيه ظلام وموج وسحاب يملأ السماء قلما تطل من بين تفاريجه النجوم . كل هذا والعروسان لا يحسان بردا ولا وحشة ولا مخاوف . على حين كانت صاحبة الفندق قلقة ضجرة تتململ وتتنزى فى انتظار المعجزة . إن المال لا يرضيها ولا يغريها لأنها تعلم — وإن جاهدا فى إخفاء شخصيتهما — أنهما زوجان فرا من متاعب الشهرة وحاولا أن يقضيا هذه الفترة من عمرهما على الوجه الذى يقضيه كل الناس . ولكنها فى انتظار أن يكشف أحد الصحفيين مكانهما . وبذلك تحقق للفندق شهرة لم تكن تحلم بها كفيلة بأن تدر عليها فى مواسم الاصطياف المقبلة أكياسا من الذهب .

كانا فى اليوم العشرين من شهرهما السعيد . وكانا على إحدى الربا يتناجيان .. يذكران الماضى ويضعان للمستقبل خطوطا باسمة جميلة . لكنهما أفاقا فجأة من الأحلام على صوت أجش ينبعث من خلفهما وكان صاحبه يقول فى نغمة لا تخلو من سخرية وإن كان فيها حلاوة :

— حظ سعيد !! .. هل كنتما تظنان أن صاحبة الجلالة تعجز عن مطاردتكما ؟؟

والتفت آدم وحواء فى وقت واحد فألفيا السيف قد سبق العذل : كان وراءهما مراسل ومصور لإحدى الصحف المنتشرة المعروفة . وكان على وجهها آيات من الجهد والظفر جعلت العروسين يتسمان ابتسامة التسليم . عاود المصور عمله فصورهما وهما يتسمان . ونالت صاحبة

الفندق ما حلمت به وما تحملت من أجله عبوس الظلام وعجيج الموج على الشاطئ وقد كادا يتلفان أعصابها . لأن أعداد اليوم التالى من هذه الصحيفة طلعت على الناس حافلة بالأنباء والصور ، فأضحى اسم الفندق وصاحبته على كل لسان ، لكن هذا الحادث كان خاتمة سريعة لشهر عسل لم يتم الثلاثين ، فقد عاد العروسان فى اليوم التالى إلى عشهما فى العاصمة .

* * *

وتمر السنون .. وما أسرع ما تمر السنون !! وسر ذلك أن مرورها عمل لا يحظى بانتباهنا .. إنه كدقات الساعة نضعها تحت الوسادة ثم نضع عليها خدودنا ولكن آذاننا لا تصغى إلى الدقات .

وقد يحدث مرة أن ننتبه إلى صوتها . فنقول : عجيب . إن الساعة تدق .. إنها تسهر على الوقت ونحن نائمون عنه ..

هكذا تمر السنون ..

وأصبح الحبيبان زوجين ..

زوجين يقتسمان العمل ، فيسعى الرجل فى الخارج ، وتقعد الأنثى فى البيت لتشرف على ترتيبه وتنظيمه ، وتقدم للزوج الطعام .. وتضع له الأطفال .

وتمر بهما حوادث عادية لا يؤبه لها فى أيامها كالشروق والغروب سواء بسواء حتى يموت طفلهما الأول فى يوم يكمل ثلاث سنوات من عمر

حياتهما الزوجية .

ثم يبدأ التحول ..

أخذت تحس أن حياتها فراغ ، وأن حبيبها يسهر على فنه وشهرته أكثر مما يسهر على حبيبته وزوجته . وبعض الزوجات يتطلبن من رجالهن أن يجعلوا الحياة فى بيوتهم حياة غرام دائم إلى آخر العمر !! وتكاثرت هواجسها وعظمت أوهامها .

كانت تتخيل فى بعض الأحيان أنها مظلومة . والذى هو أعظم من ذلك وأنكى أنها كانت تتوهم فى بعض الأوقات أنها مخدوعة .. والسر فى ذلك أن حياة زوجها الفنية قد اطردت اطرادا عجبا ، حتى أضحى هو الموسيقى الأول ، وأصبحت شهرة مغنية ما مرتبطة بأن يضع لها الألحان .

وبدأت أسماء جديدة تلمع . وأخذ اسم واحدة منهن بالذات يحلق ويسمو فيتطلع إليه الناس ، حتى إن بعض الصحف قالت عن هذه المغنية : إنها ستشغل بلا شك مكانا لا يزال شاغرا منذ اعتزلت درية الغناء .

وكأنما عز على قلبها أن يورث عرشها وهى على قيد الحياة ففقدت مرحها وفقدت نضرتها بعد مرحها بقليل . وانفتحت أمام ناظريها هوة معنوية من الزمن أصبحت تعجب معها من هؤلاء اللائى يقضين فى البيوت عمرا كاملا . واصطبغ مزاجها بصبغة عصبية حادة جعلتها

سريعة الدمعة حتى قال زوجها لها ذات ليلة وهما جالسان على المائدة :
يخيل إلى يا سيدتى أن نصف الوقت الذى قضيناه معا فى بيت الزوجية كان دموعا .. إذا حذفنا منه ساعات النوم .

فما كان جوابها إلا أنها أجهشت بالبكاء إجهاشا أدخل على نفسه قلقا وخوفا وإشفاقا فأقبل عليها يلاطفها حتى كفت فجعل يسألها :

— تستطيعين أن تكونى صادقة صريحة .. إن لك زوجا لا يتردد أن يمنحك السعادة مهما كلفته .

فقالت وعيناها لا تزالان نديتين :

— هل أفهم من هذا أنك ضائق بى ؟

فقال بجد وصرامة :

— مطلقا .. مطلقا .. لكننى حريص على أن أزيل أسباب آلامك .. إننى أكتم عنك شيئا هاما يا سيدتى .

— لم تعد تقول يا حبيبتى !!

فابتسم :

— قصدت أن أقول يا حبيبتى .. وهذا الشىء الهام هو أن صحتك فى تدهور مستمر . وذلك ...

— ألم أعد أفتنك كما كنت أفعل قديما ؟ ..

— هل أفهم من هذا أنك تؤثرين أن أكتم عنك أمر الشرارة حتى تصبح حريقا ؟

— ....

— إنك تطرقين فى اشمئزاز محزن .. كنت أعتقد أنك ستكونين عونى فى حياتى العادية والفنية على السواء .

— فأصبحت ثقلا عليك .

— آه .. ربى أعنى حتى أصل إلى نتيجة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن أسألك : فتجيبينى : ما الذى يضايقك فى الحياة ؟؟

— منذ مات ولدنا وأنا أشعر بأن الدنيا خالية خاوية .

— لكن ذلك قد انقضى عليه ما يقرب من عام .

— لكننى أحس بالذى قلته لك .

— وماذا تظنينه علاجا ناجعا ؟

— لست أدرى . ولو عرف كل مريض دواء دائه ما اشتكى مريض !!

— قول جميل كذلك . لكننى أسألك قائلا : ماذا تظنين ؟

— إن البيت لا يراك إلا فى أخريات الليل .

— أليس ذلك عملا ؟!

— وهل نحن فى حاجة إلى كل هذا المال ؟

— وهل كنت تطلبين المال أولا وقبل كل شىء ، أيام كنت شغل المجتمع الشاغل ؟

فلم تجبه إلا بالدموع .

فهز رأسه لأنه فهم شطرا من دواعى أحزانها . ثم التقى ناظراهما ففاض من عينيه عتاب تشوبه المخاوف ! ثم تركها مكانها وذهب وحده ليأوى إلى فراشه .

وثار فى جو المنزل دخان غير كثيف كان منصور يراقب وجهها من ورائه فلا يرى فيه إلا الذبول والحيرة . وجن عليهما الليل ففاتحها فى الحديث ، فما كان منها إلا أن رجته فى أن يسمح لها بأن تعطى دروسا فى « البيان » ... لمن ؟ للآنسات فحسب من كرائم الأسر . يجئنها فى بيتها فينلن فنا وتنال هى تسلية ومتاعا .

وقد كان . وجعل عددهن يزداد شيئا فشيئا حتى صار فرقة . وكن يجتمعن عندها فيسمرن ويدرسن . ودخل منصور عليهن ذات مساء فسمع وهو على بعد قريب صوتا شجيا ينبعث من الحجرة التى كن فيها . ولم يكن هذا الصوت سوى صوت درية ، فتريث حتى فرغت من أغنيتها وأطل من جانب الباب فإذا هى واقفة فى وسط الحجرة وكأنها على مسرح وإذا بالفتيات يصفقن وتعبر لهن عن شكرها ، بانحناءات متوالية رشيقة ، فوضع زوجها يده على جبينه وتنهد .

ثم اختفت هذه المناظر بعد أن أبدى لها عجبا يخالطه اشمئزاز . وساعد على اختفائها أن درية وضعت أنثى وأن حالتها الصحية لم تعد تعينها على ذلك .

ولم تحقق الأيام رجاءه فيها على مر الزمان . فبدأت المشكلة تتعقد .

كأنما كانت درية تتأذى بأن تسمع اسما يردده الناس بعد اسمها فى تفاؤل واعتزاز . وكأنما آذاها من زوجها أن يكون له يد فى رفع هذه التى يرفعها الناس إلى أعلى لأن « منصورا » كان يعليها بألحانه فنشأت فى بيته مشكلة أشبه ما تكون بخيوط الغزل التى اشتبكت أطرافها واختلطت أوائلها بأواخرها . فكانت يد الزوجين تصل فى أثنائها كلما امتدت إليها بالحل ، ثم ينظران فى آخر الأمر فيريان أنهما زاداها تعقيدا على حين كانا يظنان أنها فى طريقها إلى الحل .

وحتى المذياع كانت درية تثور عليه ... وأصبحت كارهة لألحان زوجها لأنها تصاحب غناء امرأة لا تحب أن تسمع صوتها . وأمسى الدخان الذى ثار فى البيت هذه المرة ، أشد كثافة من أى يوم مضى . لأن الزوج فارقته وتخلت عنه شفقته بها ، وعاوده طبعه الشديد وشخصيته العارمة لأن أطباء الأمراض العصبية وأرباب العلوم النفسية أكدوا له فيما بينهم وبينه أنها سليمة ولكنها تعالج كبتا قاسيا لمأرب من المآرب وغاية من الغايات .

وكان الزوج يعلم حقيقة هذه الغاية لكنه نقم عليها أنها لم تحقق آماله فى أنه كان أسمى غاياتها وأعلى مراتب ما ترجوه من الحياة . فثار الدخان مرة ثالثة وكان أشد كثافة من أى يوم مضى . وكانت الليلة قاسية هى الأخرى كأن الطبيعة فيها كانت برمة بالناس .. كان الشتاء كاشرا عن أنيابه ، والسماء مطموسة الكواكب . وهناك فرقعة رعد بين كل حين وحين

وكانت درية تقول ووجهها شاحب مستطيل ودموعها تنحدر على خديها :

— ... وليس أقسى على نفس إنسان ، من أن يشقيه من كان يرجو أن يكون هو مصدر السعادة ..

فقاطعها غاضبا .

— لقد كنت حريصا على إسعادك إلى حد أنني ارتبكت . نعم .. ارتبكت فلم أدر ما الطريقة التي يمكنني بها أن أهدى .. إليك السعادة .. ويخيل إلى يا سيدتي أن بقاءنا في مكان واحد أمر لم يعد يطاق .

فسألته بنظرة فيها تحد قليل :

— ومن السبب ؟؟ ..

— أنت .

— بل أنت !!

— وربما كان شيئا خارجا عن شخصنا نحن الاثنين .

— أتعني أن تقول : إن بيننا شخصا ثالثا ؟؟

— وهكذا السيدات .. يسارعن إلى هذا القول البذيء دائما ليقطعن على الرجال طريق التقدم .. بل وطريق الرجوع .

كان لا يقصد هذا الذى أشارت إليه ولكنها لم تترك له فرصة ينفي فيها هذه الأفكار حتى جاءت عبارته الأخيرة أشبه بأن تكون اتهاما فثارت فيها كبرياؤها القديمة . ثارت بغتة وبلا إنذار كأنها إعصار مدمر وانبعث مع

قيامة الكبرياء حنين إلى العرش .. إلى العز القديم والتصفيق والهتاف . فصرخت فى وجهه قائلة له ، بعد أن انتفضت واقفة ووضعت يديها فى خاصرتيها :

ــ كيف اجترأت على أن تقول مثل هذا الذى قلته ؟

فلم يدر . ولكنه أقبل عليها حتى سامت وجهها وجهه . ثم نظر فى عينيها وأهوى على خدها بلطمة ..

ومضى وقت غير طويل كانت هى منكبة بعده على سريرها تبكى وتنتحب . أما هو فقد كان فى غرفة الاستقبال جالسا كأنه ضيف أو كأنه فى انتظار ضيف . على حين كانت أم مبروك تجمع الثياب وتعد الحقائب . لمن ؟ لرجل سيفارق بيت امرأة .. وكان هذا المعنى يدور فى خاطره فيحس فى أعقابه بالدوار . وانقطع النور عن الحى بأسره والزوج يجتاز الحديقة فى طريقه إلى الباب ، وخيم على البيت سكون مطبق موحش بعد أن خرج منصور . كانت الدنيا صاخبة فى الخارج كأن الطبيعة كانت فى مأتم ، أما فى الداخل فقد كان هناك سكون ... كانت أم مبروك تبكى فى صمت .. ودرية مكبة على وليدتها تلح عليها بالقبلات كأنما تريد أن تثبت لها أنها جديرة بإسعادها كل الجدارة . والبلبل . لم يكن يغرد . كان يرسل بين كل فترة وفترة وصوصة قصيرة مبتورة حزينة كأنه طفل يفحم بالبكاء .

وتمر أيام معدودة يقيمها منصور فى بيت مستأجر جديد يعيد فرشه

وتأثيثه ، وفتح الزوج إحدى حقائبة فيروعه أن يرى بين ثيابه شيئا لم يكن يتوقع أن يراه ، رأى وشاحا أبيض من أوشحتها هى . من أوشحة امرأة أترع لها كأس المودة خالصة صافية نظيفة . أما هى ؟ .. آه .. كيف ينسى ؟ لقد بذلت له أشياء كريمة فى زمان مضى . بذلت له وسهرت من أجله ولكن .. هنالك فى الماضى زلة واحدة تقهر النسيان .

كان الوشاح بين يديه وهو واقف بقرب صوان الملابس ، كان أبيض . وقد رسمت على حواشيه زهرات منتثرة صغيرة خفيفة اللون ، تمثل أزهار البنفسج . وكأن بقية من عطرها كانت تفوح من بين طياته . وطافت به الذكرى فأغمض عينيه . ثم نظر ، ثم ذكر ، فأمسك بالوشاح من إحدى زواياه ورفع به ذراعه اليسرى بعد أن أشعل عودا من الثقاب وجعل يدنيه بيمينه قليلا قليلا . حتى إذا ما بدأ اللهب يلقف طرف الوشاح قذف بالعود على الأرض وداسه برجله كأنه أحس لفح اللهب على شغاف فؤاده لكن يساره بقيت مرفوعة بوشاحها وجعل بصره متجها إليه فترة فى جمود وذهول كأنه يذكر لياليها السعيدة ، ثم ... قبله طرفا طرفا ، قبله أربع مرات على كل زاوية قبلة ، وخص التى تعرضت ؟ بقبلة أحر من اللهب !! ثم طواه وجعله حيث كان .

كان يذكرها كلما رآه وإن استحكمت بينهما الجفوة . وكان يسائل نفسه عن اليد التى دست هذا الوشاح بين ثيابه فتجيبه بأنها يد درية ، وقد تخطر الحقيقة على قلبة فترة أخرى ولكن ، خطرة خفيفة ، لأن لمس

الأوهام كثيرا ما يكون أحلى على القلوب من لمس الحقائق . كان يقول : ربما كانت أم مبروك هى التى جعلت وشاح سيدتها بين الملابس متفائلة ببياضه عله يكون فى يوم من الأيام راية صلح ...

ولكن المقادير أمدت الحريق بالحطب ، حين أعلنت درية بعد أيام أنها ستعود إلى الغناء ، ففرح الناس ، وحزن منصور ..

وأظل المساء فكان سعيد فى حجرة الاستقبال من منزل درية ينتظر دخولها مثل ما كان يفعل فى ليال خلت .

كان الطائران القديمان لا يزالان يتراقصان على كأسيهما فجعل يحدق إليهما مفكرا متعجبا وعلى ثغره ظلال ابتسامة ، حتى إذا ما دخلت درية رأى أن الزمن قد نال منها ما لم يستطع أن يناله من هذين الطائرين .. رآها غير التى عرفها وإن جاهدت فى أن تخفى آثار الزمان . وخفق قلبه طبعا . واضطربت أنفاسه . ودس بين ثنايا حديثه كلمات كانت فيما مضى أحلاما عريقة دارت حول درية .. ثم نسيتها الليالى . على أن قلبها نفسه لم يكن مستعدا لأن تنفتح فيه نافذة صغيرة لأن تجربتين قاسيتين مرتا به . كانت أولاهما فى ربيع العمر . وكانت أخراهما فى خريفه .

ولكنها لم تجد فى حياة الغناء المتعة الأولى التى وجدتها من قبل .. كانت كالذى قام عن المائدة فغاب ثم عاد إليها فلم تعد معه الشهية الحادة . وقابل منصور رجوعها إلى الغناء بعمل سلبى بارع هو أنه لم يضع للمغنيات جميعهن لحنا من ألحانه .

وتمضى سنوات تجاوز بها درية سن الأربعين وتجلس ذات مساء لتستعيد ماضيها كما يفعل الناس ، حتى إذا ما انتهت إلى الحاضر ورأت أنها لا تزال متربعة على عرشها على الرغم من كثرة اللائى يدرن حوله طفرت من عينيها دمعة كبيرة ، لأنها تخيلت ذلك اليوم الذى ستمتد إليها فيه بعض الأيدى لتنزلها عنه كارهة غير مختارة ، فخطر لها خاطر دفعته عن نفسها ولكنه لم يشأ أن يتركها . وفحوى ذلك الخاطر أن تعتزل درية الغناء مرة أخرى طائعة مختارة بعد أن تبذل للجمهور فى حفلة أخيرة نماذج من الفن ينسج حولها الذكريات فى المستقبل . وقد كان .

وتمر السنون . وما أسرع ما تمر السنون .

وسر ذلك أن مرورها عمل لا يحظى بانتباهنا .

لأنه كدقات القلب . إن سمعناها ، أو أحسسنا بها. فمعنى ذلك أننا فى خطر !!

وتهجم الشيخوخة على أم مبروك ، ويجف عودها فلا يستطيع الطب أن يمدها بشيء : وتحشرج روحها فى ليلة من الليالى وتكب عليها سيدتها دامعة العينين وهى تسألها الرضا والدعاء فى الساعة الحرجة التى يمر بها كل حى . وتفعل الخادم فتدعو لها بهدوء البال ، ثم تستغفرها بعد ذلك من زلة عملتها : فتتراجع درية إلى الوراء قليلا من عجبها ثم تصغى إلى خادمتها الأمينة وهى تقول لها :

ـــ كان ذلك من عشر سنوات .. ليلة فارقك .. على الرغم منى

سيدى منصور .. ثم سألتنى بعد ذلك عنه فكذبت عليك ... أنا التى وضعت وشاحك الأبيض بين ملابسه .. كنت أرجو .. ولكن الله لم يشأ ...

ثم أغمضت عينيها فى إغفاءة أخيرة .

أما منصور فقد سكن برجا عاجيا لم تكن تجوم حوله امرأة ما . ولم يكن يدخل عليه فيه إلا ابنته التى كان يحبها هى والموسيقى ولا شىء فى الدنيا بعد ذلك .. وقد درت عليه الوحدة مالا وشهرة لم تمنحهما من قبله لإنسان .

وتمر السنون .. وما أسرع ما تمر السنون !!

وسر ذلك أن مرورها عمل لا يحظى بانتباهنا .

لأن الشمس تشرق وتغرب بطريقة واحدة منذ فطر الله الشروق والغروب .. لكن الشروق والغروب يتركان على رءوس الناس زبدا كالذى تتركه الأمواج على الشواطئ .

ذلكم هو الشيب !!

كانت درية تراقبه فى شعرها أمام المرآة فى أسى وحسرة على حين كان هناك خيال شباب يتراقص أمامها على بعد . كان خيال ابنتها التى بدأت تتفتح مع تباشير الشباب .

كانت ترى الفتاة والوجود ، والموروث والوارث ، فى صفحة المرآة وهى ترجل شعرها فى ذلك اليوم !! وتردد فى هذه اللحظة القاتمة فى

نواحى الغرفة تغريد بلبل فزاد من انقباضها . لأنه كان جديدا ورث القفص فى أعقاب بلبل شاخ .. ثم مات !!

ثم يزورها سعيد فى ضحا يوم من الأيام بعد انقطاع طويل . وتقابله درية مرحبة مشتاقة لأنها كانت تكبر فيه الحياء والوفاء فقد كان هو الرجل الوحيد الذى يرسل إليها بطاقاته فى المناسبات إن لم يزرها بنفسه . ولم يتغير بتاتا . احترمها وهى على عرشها ، واحترمها بعد أن تخلت عنه فحلت له فى نفسها ذكريات محبوبة . ودخل حجرة الاستقبال . وجلس فى انتظار قدومها وكان قريبا من التمثالين ... من الطائرين اللذين تذكر قصتهما .. فرآهما فى وضع غريب .. كانا واقفين أمام كأسيهما ينظران ولا يتراقصان كأنما لمستهما يد الزمن ، فكفا عن الحركة !! فاغرورقت عيناه بالدموع . ثم كان موضوعا لحديث درية وسعيد بعد أن دخلت عليه . كان يقول : انظرى .. ظننتهما فيما مضى خارجين عن نطاق الحوادث .. ثم سكت ، ثم خلع طربوشه فرأت على رأسه زبد الليالى .. وكان كثيرا .. أكثر مما كانت تظن . وامتد بهما الحديث حتى قال سعيد :

ــ هنالك فى حياة كل إنسان يا سيدتى ثغرة تبقى مفتوحة حتى آخر العمر وكثيرا ما يكون بقاؤها هكذا خيرا وأحلى مما لو قدر لها أن تسد لأننا فى أواخر عمرنا نشعر بالسأم والملالة إن تحقق لنا كل ما كنا نشتهيه ، أما إذا كان لنا فيما مضى أمل لم ننله ، فإنه يتحول فى هذه السنوات إلى

ذكرى مدفئة حارة تسرى حرارتها فى برد شيخوختنا فتخفف عنا عناءها شيئا ما .

فابتسمت لأنها فهمت ما يعنيه ، وقد كان يعنيه منذ سنوات طويلة .. ولكنها لم تمد إليه يدا !!

ثم تمر السنون ...

ويخيل إلى أنها تمد خطاها ونحن فى أواخر العمر .. تماما تماما . كما يتراقص سريعا سريعا لهب الشمعة قبل أن يندفن فى ذوبها المتراكم . نعم وتمر السنون . ويوجه منصور بطاقات الدعوة إلى حفلة موسيقية خاصة يستمع فيها الناس إلى المعجب الرائع فى قطعة وضعها هذا الموسيقى العظيم وتكون أم فتاته بين الحاضرين وكذلك تكون بنته . ويمسك الناس عن الهمس لأن رجلا وقف يعلن اسم المقطوعة الجديدة وكان اسمها « الوشاح الأبيض » .. فذكرت درية حادثا قديما ..

صب فيها حياته كلها ثم ختمها بدموع .

وكان بعض الأنغام يشق طريقه إلى زوجته فيتعرف عليها بين الناس ثم يمسك بتلابيبها ويشد عليها الخناق حتى تدمع عيناها .

وانفض الجمع وعادت الأم والفتاة إلى البيت . كانت الأم قانطة واجمة أما الفتاة فقد كانت فرحة فخورا . وكان ذلك مدعاة لأن تقبل على أمها تسألها السبب . وهنا تثور فى درية شخصية جديدة لمست جسدها بعنف للمرة الأولى على التقريب . تلك هى شخصية أم درية . كأنما

انبعثت من قبرها فى تلك الليلة لتتقمص جسد بنتها إلى مدى ساعات .

فاستحالت إلى وقار وحكمة وصراحة وحرص على الأبناء .

مسحت درية على رأس فتاتها ثم قبلتها وأجلستها إلى جوارها ونظرت إلى السقف وإلى الباب وإلى قطع الأثاث قطعة قطعة قبل أن تتكلم .. كانت كأنها تستلهم الأشياء ذكرياتها قبل أن تصبها فى سمع بنتها ثم قالت :

ــ كان ذلك فى صدر شبابى أيام كنت ابنة رجل فقير . كنت جميلة طموحا وأحببت ، لكننى خنقت قلبى هو ومن أحبنى واستمعت إلى نداء طموحى . ثم أحببت أباك وأحبنى وجمعنا عش الزوجية يا بنتى ولكننى كنت سيئة الطالع سيئة التصريف .

كان عطوفا ألوفا يود أن يحقق لى السعادة بكل ما يطيق ، ولكننى لم أعاونه على ذلك . حتى إنه حدث لنا ذات مساء بعد أن مكثنا ساعات يجادل كل منا صاحبه لنعرف من منا السبب فى إثارة الدخان فى البيت ، حدث أن قال لى : درية ... لقد فقدنا السعادة !! فأجبته بكل جفاف : نعم لقد فقدنا السعادة . فقال لى : عندى اقتراح أستطيع أن أؤكد قدرتى على تنفيذه .. فنظرت إليه متسائلة مشتاقة فقال : هلم ننتحر معا ، فرددت عليه بأعصاب تالفة ودموع مترادفة . نعم .. هلم .. ولكن ما هى الطريقة ؟ ثم جعلنا نستعرض معا طرق الموت واحدة واحدة فبدأناها بالنار ثم ختمناها بالأزهار . وارتفع فى هذه اللحظة بكاؤك ، فذهبت إليك لأراك ثم مكثت معك حتى لم أر زوجى إلا فى الصباح .. وهكذا

عدنا فعشنا على الرغم من فقدنا السعادة . ثم افترقنا على الحياة !

لكن يا بنيتى أعود فأقول لك : لقد فقدت الحبيب الأول متجنية عليه ثم اتهمته بالحق أو بالباطل .. اتهمته بأنه كان ضعيف الساعدين فلم يستطع أن يحتفظ بامرأة !

وهأنذا بعد أن انقضى كل شيء أعترف لك أننى لم أكن مثالية فى حياتى الزوجية لأننى كنت مثل الرجل الذى اتهمته .. كنت ضعيفة الذراعين فلم أستطع أن أحتفظ بزوج !!

فأطرقت فتاتها وقد فهمت كل شيء ، على حين رفعت الأم وجهها إلى السماء مبتهلة أن تحظى فتاتها بحياة زوجية سعيدة .

رقم الإيداع ٢٥٥٧
الترقيم الدولى ٠ ــ ٢٢٣ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

رقم الإيداع ٢٥٥٧
الترقيم الدولى ٠ ــ ٢٢٣ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٢٥٠ قرشا